Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب الهلال

تاريخ الفكر المصرى الحديث

الفكر السياسى والاجتماعى

دكتور لويس عوض

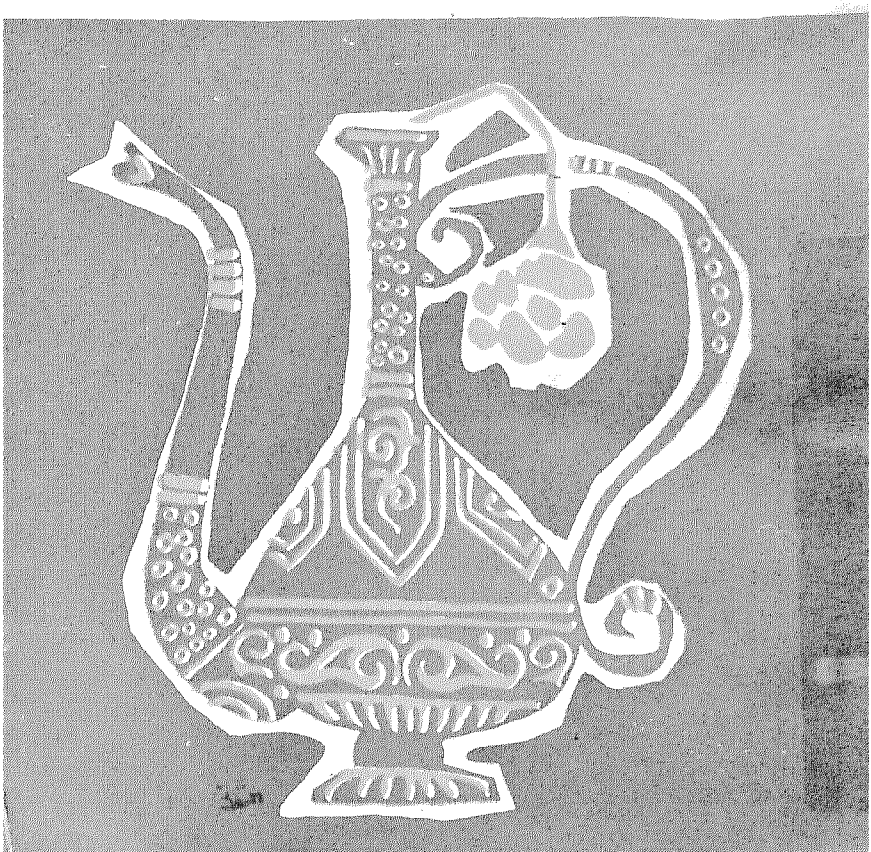

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

٢١٧ ـ محـــرم ١٣٨٩ ـ ابريل ١٩٦٩

No. 217 - Avril 1969

مركز الادارة

دار الهـلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخـارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحـددة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الغلاف بريشـــــة
الفنان حلمي التوني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دكتور لويس عوض

تاريخ الفكر المصرى الحديث

الفكر السياسى والاجتماعى

(٢)

دار الهلال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعة الثالثة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول

عبد الرحمن الجبرتي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ــ عبد الرحمن الجبرتى

منذ ان دخلنا امتحان ٥ يونيو بدأ عديد من الكتاب فى استقصاء الاسباب والنتائج . وفى اعتقادى ان من أهم ما كتب فى باب التفتيش فى أعماق النفس ، دعوة بعض الكتاب الى اعادة النظر فى وضعنا الحضارى والى اقامة كياننا بمقومات الدولة الحديثة ، وقد كان جوهر رأيهم ان سر ضعفنا هو عدم استكمالنا لادوات الحياة الحديثة .. فليس منا من يجهل أن مصر لم تخرج من ظلمات العصور الوسطى التى نشرتها الامبراطورية العثمانية فى كل ما ملكت من الامصار ، الا منذ مائة وسبعين عاما ، حين دخلت مصر لاول مرة فى علاقات مباشرة مع اوربا . وهى فترة وجيزة فى تاريخ الشعوب والحضارات . فأوربا نفسها قد بدأت عصر نهضتها نحو عام ١٥٠٠ ، اى منذ نحو خمسة قرون ،واذا كانت حضارتها قد تجاوزتنا نضجا فما ذلك الا لانها سبقتنا الى بناء الدولة الحديثة بنحو خمسمائة عام ..

وهذه محاولة متواضعة لرصد تاريخ الفكر المصرى الحديث ومكوناته .. متى احتكت مصر بأوربا ؟ وكيف احتكت ؟ وما اثر هذا الاحتكاك فى حياتنا ؟ ان من يريد ان يدعم بناء الدولة الحديثة فى مصر لا مناص له من استقصاء مقوماتها فى تاريخنا ليعرف اى شوط قطعنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيعرف ما بقى امامنا لبلوغ الهدف . ولنبدأ حديثنا بالعلم الحديث وفتوحاته . ومن خلال مفكرينا وكتابنا عبر القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين ندرس كيف عرف المصريون لاول مرة بالعلوم الوضعية والتكنولوجيا وكيف استجابوا لها بعد ان كانوا لايعرفون الا الروحانيات .. وهذا هو شيخ المؤرخين ، عبد الرحمن الجبرتى ؛ منه نتعلم شيئا كثيرا

كانوا ثلاثة من جيل واحد ، هم عبد الرحمن الجبرتى وحسن العطار واسماعيل الخشاب،قدر لهم ان يجاوروا وان يتجاوروا فى الازهر فى ذلك العصر الفريب العجيب الرهيب عصر الثورة الفرنسية ، وان يعاصروا مجيء نابليون بونابرت الى مصر ، وان يتقلدوا ارفع المناصب فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر والشرق العربى جميعا ، فالاول عين وزيرا فى عهد عبد الله مينو ، او عضوا فى الديوان كما كان يسمى فى ذلك العهد . والثانى عين شيخا للازهر فيما تلا ذلك من سنوات . والثالث كان سكرتيرا لمجلس الوزراء فى عهد الحملة الفرنسية أيام ولاية عبد الله مينو . ولكن قدر لهم فوق كل شيء ان تقترن اسماؤهم بوصفهم واضعى اسس الفكر المصرى الحديث ، والممهدين الحقيقيين لانتقال العقل المصرى من ظلام العصور الوسطى الى نور العصر الحديث، الجبرتى بتاريخه العظيم « عجائب الاثار فى التراجم والاخبار » والعطار والخشاب بدعوتهما الى ضرورة الاخذ بالعلوم العقلية والوضعية حيث كان يكتفى بالعلوم النقلية وبعلوم الدين . باختصار كان هؤلاء الثلاثة هم أول من وضعوا اساس الفكر الانسانى والعلوم الانسانية فى مصر والعالم العربى ، وعلموا المصريين والعرب عامة ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدنيا ليست مجرد معبر للآخرة لان للانسان قيمة فى ذاته . وان من اهمل شئون دنياه اهمل فى ابتغاء آخرته ايضا ، وان العلم والفن والفكر هى سبل الانسان لتصحيح دينه ولتصفية معتقداته الدينية من الخرافات ومن كل ما يشل فيه قدراته الخلاقة . وقد آلت اليهم قيادة المثقفين فى ذلك العصر الغريب العجيب الرهيب، فقادوهم الى بناء الدولة الحديثة وكانوا بمثابة التمهيد العظيم لظهور ذلك العبقرى العظيم رفاعة الطهطاوى ، ابى الفكر المصرى الحديث . ولقد كانت مهمتهم اشق من مهمته لان الروادير تادون المجاهل اما البناة فينشئون فى ارض واضحة الانقاض

ولد عبد الرحمن الجبرتى عام ١٧٥٤ وتوفى عام ١٨٢٥ ، فهو قد عاش اذن واحدا وسبعين عاما عاصر خلالها عصر الترك والمماليك ثم عصر الحملة الفرنسية على مصر ثم عصر محمد على ، وكان له موقف معروف من كل عصر من هذه العصور . اما تنديده بعصر الترك والمماليك فتفيض به كل صفحة من صفحات تاريخه « عجائب الاثار » ، واما رأيه فى الحكم الفرنسى وفى الحضارة الفرنسية فقد اختلط فيه السلب والايجاب بسبب موضوعيته واستقلاله فى الرأى عن عواطف الغوغاء وعن ترهيب الحكام وترغيبهم ، حتى وصفه الفرنسيون بانه شيخ متعصب ووصفه ابناء جنسه بانه نصير الفرنسيين — واما موقفه من محمد على باشا فقد كان واضحا وقاطعا . كان يعتقد ويجاهر بالقول والقلم منذ ولاية محمد على ١٨٠٥ حتى وفاته هو فى ١٨٢٥ ان محمد على مجرد مغتصب لحكم مصر من امرائها الشرعيين وهم المماليك المصريون ، وان عهده رغم كل ما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان فيه من انشاءات واصلاحات كان عهدا يقوم عـــلى الظلم والجور حتى لقد قيل ان محمد على ارسل اليه من قتله عام ١٨٢٢ ، وهى رواية غير ثابتة . وليس معنى هذا أن الجبرتى كان يناصر المماليك فتنديده بمفاسدهم يتفجر فى كل صفحة من صفحات تاريخه ، وقد حملهم مسئولية دخول الفرنسيين مصر فى مقدمة كتابه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » حيث يقـــول ان الدولة « استنامت الى المماليك اتكالا عـلى شجاعتهم فخربوا الثغور وشادوا القصور » اى ان المماليك خربوا البلد ، فى سبيل حياة البذخ والملذات التى كانوا يحيونها، كما حملهم هذه المســـئولية لتحرشهم بتجارة فرنسا وتجارها ولاسيما فى ثغور مصر ، لحساب الانجليز

وقد ظلت اعمال الجبرتى مصادرة ومحظورا طبعهـا وتداولها طوال عصر محمد على واخلافـه حتى رفـع عنها الحظر فى عهد الخديو توفيق ، حين نشر الجزءان الثـالث والرابع من « عجائب الاثار » ثم نشر الجزءان الاول والثانى فى عهد الخديو عباس حلمى . وقد ظهرت ترجمة فرنسية كاملة لهذا الكتاب العظيـم ، نشرت فى تسعة اجزاء بين ١٨٨٨ و ١٨٩٦ وهى بقلم شفيق منصور بك «يكن» وعبد العزيز كحيل بك وجبرائيل ثتولا كحيل بك واسكندر عمون افندى . وفى مقدمة هذه الترجمة الفرنسية ان الجبرتى خنق فى طريق شبرا فى ١٨ يونيو ١٨٢٢ وهو عائد من قصر محمد على ، ارسل اليـــه محمد على من خنقه وربطه بحبل الى رجل حماره ..

وربما كان هذا الكلام ترديدا لاشاعة قديمة مختلقة سرت عند موت خليل بن الجبرتى بأن محمـد بك الدفتردار صهر محمد على اغرى بعض الاشقياء بالجبرتى نفســـه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد ان اطلع على اجزاء من تاريخه واستأذن محمد على فى الفتك به ، ولما لم يظفر بالوالد فتك بالولد . وفى رواية أن قاتل خليل الجبرتى هو سليمان أغا السلحدار . وأيا كان الامر ففى مدونات القرن التاسع عشر ما يشير الى ان القتيل هو خليل الجبرتى وليس عبدالرحمن الجبرتي .. فالكساندر كردان وهو مترجم القنصلية الفرنسية الذى ترجم الى لغته « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » ونشره فصولا فى الجريدة الاسيوية « مارس ١٨٣٤ ويوليو وديسمبر ١٨٣٧ ثم نشره كاملا فى كتاب عام ١٨٣٨ بعد وفاة الجبرتى بثلاث عشرة سنة ، يذكر فى مقدمته ان احد ابناء الجبرتى كان يعمل لدى محمد على باشا وان بعض القتلة هاجموه وفتكوا به فى ١٨٢٣ وهو فى طريقه من شبرا الى القاهرة ، وان الجبرتى نفسه بكاه حتى فقد بصره ولم يعش بعده طويلا

وفى الرحالة الايطالى ج.ب. بروكى أنه زار الجبرتى فى ديسمبر ١٨٢٢ بداره فى بولاق. فوجده اعمى قابعا فى داره . وهذا جعل قصة عمى الجبرتى سابقة على موت ولده خليل . وفى لين أن الجبرتى مات فى ١٨٢٥أو١٨٢٦ « بعد وصولى الى القاهرة بفترة وجيزة » . وايا كان القول فان الكلمة الاخيرة فى موت الجبرتى او مقتله لم تكتب بعد لتقلب أهواء السياسة على تاريخ البلاد طوال عهد أسرة محمد على التى حكمت مصر نحو قرن ونصف قرن . اما تاريخ الجبرتى ، فهناك ما يثبت انه كان معروفا او متداولا ولو فى أجزاء منه ، فى عهد محمد على نفسه

ولد عبد الرحمن الجبرتى لاسرة جدها الأعلى لأبيه رجل حبشى الاصل اسمه زين الدين عبدالرحمن الجبرتى من بلدة جبرت فى بلاد الحبشة ينسب نفسه الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسلم بن عقيل بن ابى طالب وقد نزح زين الدين الجبرتى هذا الى مصر نحو عام ١٦٠٠ بعد ان اقام فى مكة زمنـــا وجـــاور فيها ، ودخل الازهر وتولى مشـــيخة رواق الجبرتية ثم اعقبه فى مشيخة هذا الرواق ولده شـــمس الدين الجبرتى الذى انجب نور الدين الجبـــرتى والد حسن الجبرتى الذى كان مفتى المسلمين وانجب برهان الدين الجبرتى ، وهو ابو حسن الجبرتى والد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى ، كل هذه الانساب قصها الشيخ حسن الجبرتى على ولده عبد الرحمن وقص معها كثيرا من اخبار هذه الاسرة المجاورة العارفة باصول الدين ، ومن بين افرادها من نسبت اليه كرامات الواصلين .ومع هذه الانساب كان حسن الجبرتى يروى على ولده الصبى عبد الرحمن الجبرتى سير من عرفهم من علماء الازهر او من المماليك والكشاف وغيرهم من رجالات الدولة ورجالها

وكان حسن الجبرتى من ثراة الازهريين اختلطت فيه شخصية العالم بشخصية رجل الاعمال . فكان يملـك ثلاثة مساكن فى القاهرة احدها فى الصنادقية المتاخمـة للازهر والاخر فى بولاق والثالث فى الساحل يطل على شاطىء النيل .وكانت له فى كـــل بيت زوجة واولاد ومماليك وعبيد وجوار ، وقد انجب فى حياته نحـــو اربعين ولدا وبنتا ماتوا جميعا فيمـا خلا عبد الرحمن، وهو ابن جارية بيضاء عرضت عليه فاشترتها بمالها من الحجاز زوجته بنت رمضان شلبى المعروف بالخشاب حين خرجت للحج مع زوجها ، وجاءت بها الى مصر حيث اعتقتها وزوجتها من زوجها . وقد ماتت الزوجة والجارية فى يوم واحد . كذلك كانت لحسن الجبـــرتى اطيـــان ونظارات على اطيان فى ابيار بالقرب من كفر الزيات وفى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غير أبيار . وكان فى الوقت نفسه أستاذا فى الازهر يعلم الفقه والعلوم الحكمية والرياضية . وكان من تلاميذه المعروفين الشيخ محمد اسماعيل النفراوى والشيخ عبد الرحمن العريشى ، شيخ رواق الشوام الذى غدا فيما بعد شيخا للازهر ، والشيخ محمود الكردى والشيخ عبد الرحمن البشبيشى والشيخ محمد الفرماوى والشيخ محمد الصبان والشيخ موسى الجناجى والشيخ محمد عبد ربه العزيزى والشيخ الهلباوى ، وهم جيل اوسط من العلماء درس الفتى عبد الرحمن الجبرتى على نفر منهم حين جاور فى الازهر بعد ان اتم تعليمه الاول فى مدرسة او كتاب السنانية وهى على ناصية الصنادقية .. وفى الازهر الحق حسن الجبرتى ابنه عبد الرحمن برواق الشوام ليدرس على الشيخ العريشى مذهب الحنفية .. غير هذا نعرف عن حسن الجبرتى أن ثروته فى الصنادقية والغورية ومرجوش جاءته عن طريق جدته لابيه ، وهى مريم بنت محمد المنزلاوى ، ومن زوجته بنت اغاباش حاكم الطور والسويس ، وان ثروته فى بولاق والساحل وغيرهما جاءته من زوجته الاخرى بنت رمضان شلبى المعروف بالخشاب . كذلك نعرف عنه انه كان مهتما بالعلوم الوضعية والهندسية ، فقد كانت فى داره بالصنادقية الى جانب مكتبة فى علوم اللغة والدين بعض الاجهزة الهندسية كالاسطرلاب وبعض أدوات الصناعة ، وانه كان مهتما بضبط الموازين والف فى ذلك كتابا اسمه « العقد الثمين فيما يتعلق بالموازين » ، وانه كان يرشد السباكين والحدادين وقباني القاهرة الى ماينبغى عمله لضبط الموازين ، ولم يكن فى ذلك مفوضا من احد وانما على نفقته الخاصة . كذلك الف الشيخ حسن الجبرتى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« الدر المختار » و « شرح لقطة العجلان » و « حاشية على شرح الاربعين النووية للشبشيرى »

فى هذا الجو الدينى والعلمى نشـــأ عبد الرحمن الجبرتى . نشأ بين علماء الازهر الذين خالطهم فى الازهر او فى بيته وسمع باخبارهم جيلا بعد جيل من ابيه وبين المماليك والكشاف والخشداشية والسناجق ، أو على الاصح بين اشباحهم واخبارهم لكثرة ما كان ابوه يروى عليه من اثارهم . فوجد عبد الرحمن الجبرتى نفسه وهو بعد فى سن العاشرة ، سن التمييز كما يقول ، بين عالمين هائلين متجاورين ، احدهما قوامه العلم والدين وابطاله مشايخ لا حصر لهم كالزرقانى والملوى والشربينى والصعيدى والدردير والعدوى والحفنى والادكاوى والدمنهورى الخ ، بعضهم عاشت ذكراه وبعضهم انطوى فى غبار الزمان ، والآخر قوامه السياسة والحرب والدسيسة والمال والدم المهراق ، وابطاله المماليك ومن يلوذ بهم من محمد بك جوركس الى اسماعيل ايواظ الى ذى الفقار قنصوه الى عثمان كتخدا الى محمد قطامش الى عثمان بك ذى الفقار الى ابراهيم كتخدا بك ورضوان الجلفى بك الى على بك الكبير ومحمد بك أبى الدهب الى اسماعيل بك بارم ديله الى يوسف بك القرد الى أبو مناخير فضة ، وكل أولئك الفرسان الاجلاف الظلمة الذين تكونت منهم الطبقة الحاكمة فى مصر فى ظل الامبراطورية العثمانية وشاءت فطرة هذا الشعب العظيم المغلوب على أمره أن تسخر منهم بأمثال هذه الالقاب المضحكة عساها أن تجد فى هذه السخرية بعض العزاء . وقد كان واضحا كل الوضوح أنه كان يتحرك فى عالمين منفصلين كل الانفصال كما تدل على ذلك أسماؤهم وأعمالهم : عالم من المثقفين المصريين المباهين باصلابهم الريفية ولو كانوا من أهل الحضر،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعالم من الفرسان الاعاجم الاتراك والشراكسة والقوقازيين والاكراد الخ .. ممن انبتت وشائجهم بهذه الارض الطيبة غيرما كانوا ينهبونه من خيراتها بالسيف وبالقانون وباسم السلطان خليفة المسلمين فى استانبول

وقبل ان يموت الشيخ حسن الجبرتى زوج ابنه عبد الرحمن ، وهو بعد غلام لم يتجاوز الرابعة عشرة ، ولكن عبد الرحمن الجبرتى لا يذكر لنا شيئا عن زوجته الاولى هذه غير أن الشيخ عبد الله الادكاوى هنأ أباه بهذا الزواج فى بيت سخيف من شعر هذه الفترة السخيف . أما زوجته التى نسمع عنها شيئا ، فقد تزوجها الجبرتى وهو فى نحو السابعة والعشرين من عمره ، وهى ربيبة صديقه على عبد الله درويش الرومى ، قال انه أخذها بعيالها ، وانه أوى صديقه فى بيته لضيق ذات يده . كذلك نعلم أن أباه توفى عام ١٧٧٥ ، أى حين كان الجبرتى فى الحادية والعشرين من عمره ، وانه تخرج فى الازهر وهو فى الثانية والعشرين ، أى عام ١٧٧٦ . فلما مات أبوه قام الجبرتى برحلة فى الوجه البحرى زار فيها كفر الزيات وطنطا وفوه ورشيد وادكو ودمياط والمنصورة ، ويظن أنه نزل بابيار لتفقد مزارع الاسرة وانه عرج على أبو قير ، كما يرجح انه قام فى تاريخ ما برحلة فى الوجه القبلى ، وذلك لدقة المامه فى كتاباته ببلاد الصعيد . ولا يذكر الجبرتى صراحة أنه أدى فريضة الحج ، ولكنه يذكر عرضا انه اطلع بنفسه على شهادة ميلاد رضوان كتخدا ابراهيم بك الكبير فى مكة ، وهذا يفيد انه زارها

وربما كان أهم شىء وجه الجبرتى الى كتابة التاريخ هو صلته بالسيد محمد مرتضى الزبيدى ، فقيه اللغة فى زمانه وصاحب المعجم المشهور « تاج العروس » . فقد هبط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزبيدى مصر ، وهو أصلا من اليمن ، عام ١٧٥٤ ، أى عام مولد الجبرتى ، وسكن فى الصاغة ودرس فى الازهر وفى جامع شيخون ولازمه الجبرتى فى شبابه وقرأ عليه مع لفيف من شباب الازهر وشيوخه ، وأجدرهم بالذكر حسين الدرب شمسى ، واحمد يوسف الشنوانى ، واسماعيل وهبى المعروف بالخشاب ، والشيخ السجاعى ، كما تتلمذ عليه بعض الامراء من أمثال أيوب بك الدفتردار ، ومصطفى بك الاسكندرانى . وفى الثمانينات والتسعينات من القرن السابع عشر طوى الموت أكثر من عرف الجبرتى من علماء الازهر الراسخين ، ماتوا الواحد بعد الاخر ، وبقى الزبيدى وحده العلم الفرد والقطب الاكبر ، وذاع صيته فى الامصار فتجبر وتأله فكان يأذن لمريديه من المغاربة أن يسجدوا ويقبلوا الارض بين يديه وكانوا يرون فيه « القطبانية العظمى » . وخلا الازهر من العلماء الراسخين ، ولكن جيلا جديدا من العلماء الشبان كان قد أخذ يتكون فيه ، من أمثال الشيخ ابى الانوار السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ محمد الامير والشيخ المهدى والشيخ الفيومى ، وهم ذلك الجيل الخطير الذى تفتح للحضارة الجديدة واضطلع بمسئوليات الحكم حين حطم بونابرت ذلك السور العثمانى العظيم الذى حال دون اتصال مصر بأوروبا ثلاث قرون كاملة ، منذ فتح السلطان سليم مصر فى ١٥١٧ ، وبذلك كانوا أول من وضع أساس الدولة الحديثة فى مصر قبل محمد على باشا بسنوات

وقد عرض الزبيدى على تلميذه ومريده الجبرتى نحو عام ١٧٩٠ أن يعاونه فى وضع كتاب عن أعلام القرن الثامن عشر من مصريين وحجازيين ، فدهش الجبرتى لهذا الطلب وأخذه زهو عظيم لانه رأى ان هذا العمل الكبير سوف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقرن اسمه باسم استاذه ويخلد اسمه فى التاريخ . وهكذا أخذ الجبرتى يعد البطاقات بالاعلام والحوادث الجسام ، وكان يسميها « طيارات » ويحشد فيها كل ما تذكره من أحاديث أبيه عن العلماء والحكام . ثم أخذ يستوفى مراجعه على طريقة أقرب الى المنهج العلمى فعثر فى مكتبته على كتاب فى التاريخ بقلم مؤرخ مغمور هو أحمد عبد الغنى شلبى ، وعلى كتاب « الخلاصة » للامينى ، وعلى رسالة « شرح الصدر فى غزوة بدر » لعبد الله الشرقاوى ، وكانت فى ذيلها نبذة عن تاريخ ولاة مصر الى أيام الوالى على باشا الحكيم . ثم أخذ يجمع سير شيوخ الازهر وعلمائه وسير الادباء والشعراء وسير الولاة والمماليك والسناجق « اى المحافظين » واتسع عليه الامر واختلط . ثم استعان بالشيخ اسماعيل الخشاب ، وكان قاضيا ، وطلب اليه ان يحقق له تواريخ الاعلام وأعمارهم من الصكوك وحجج الملكية ، فقبل الشيخ الخشاب . وظل الجبرتى يعد البطاقات أو الطيارات ويدون الكراريس ويعرضها على مرتضى الزبيدى حتى توفى الزبيدى بالطاعون بعد عامين من بدء العمل . وبعد موت الزبيدى اكتشف الجبرتى سر هذا العرض السخى الذى عرضه عليه أستاذه باسم العلم . فقد جاءت الجبرتى رسالة من مفتى دمشق يطلب فيها اليه أن يوافيه بكل ما قد أعد هو وأستاذه من أوراق وجمع من وقائع . فأدرك أن الزبيدى انما كان يعد معجم الاعلام هذا بتكليف من محمد خليل المرادى الحسينى قاضى دمشق ، وان هذا القاضى انما ندب الزبيدى للقيام بهذا العمل لانه من غير أهل مصر ، وبالتالى فهو كفيل بأن يثبت رأيه فى الناس وفى الاحداث بلا تحفظ . وكانت مشكلة الجبرتى هى كيف يحصل على أوراق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزبيدى وكيف يسترد أوراقه الخاصة من مكتبته بعد وفاته . وحين باعت أرملة الزبيدى مكتبته اشترى الجبرتى « الكتب والدشتات » وكان بينها عشر كراريس من التراجم مدونة بقلم الزبيدى ، ولما تصفحها الجبرتى وجدها عديمة القيمة ، لانها كانت تتناول سير أفاقين من المغرب والشام والحجاز والسودان . أما المفتى فقد أتم كتابه بعنوان « سلك الدرر فى أعيان القرن الثامن عشر » قبل موته فى أوائل التسعينات . وهكذا انتهت قصة هذا الكتاب ، ولكن فكرة التأريخ لرجالات مصر وأيامها لازمت الجبرتى بعد ذلك

حين دخل بونابرت القاهرة بعد انتصاره فى معركة امبابة فى ٢١ يوليو ١٧٩٨ كان الجبرتى فى الرابعة والاربعين من عمره . وكان قد زامل حسن العطار واسماعيل الخشاب فى حلقات الدراسة فقرأوا معا على الشيخ محمد الصبان وعلى الشيخ مرتضى الزبيدى وعلى الشيخ محمد الامير النحو وفقه اللغة ، ونشأت بينهم صداقة حميمة رغم اختلافهم فى المشارب والتكوين من بعض الوجوه

فلما أصدر بونابرت مرسومه فى ٢٥ يوليو ١٧٩٨ بتشكيل أول مجلس للوزراء عرفته مصر من علماء الازهر ، كانت قائمة الوزراء بحسب ما ورد فى الجبرتى الذين اختارهم العلماء لتقلد السلطة فى البلاد تشمل تسعة أعضاء هم الشيخ عبد الله الشرقاوى « رئيسا للديوان والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ موسى السرسى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ احمد العريشى والشيخ يوسف الشبراخيتى والشيخ محمد الدواخلى ، أما الشيخ محمد المهدى فقد اختير سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأين كان الجبرتي فى تلك الفترة العصيبة ؟

روى اهل الجبرتي بعد وفاته لالكساندر كردان ان الجبرتي غادر القاهرة عند دخول الفرنسيين وقصد الى ابيار ، وان بونابرت استدعاه وعينه عضوا فى الديوان . وهذه الرواية صحيحة فى شطرها الاول غريبة فى شطرها الثانى . فقد هرب الجبرتي من القاهرة بين العلماء الهاربين ، وعاد من ابيار بعد غيبة عشرة أيام بناء على طلب بونابرت الذى كلف الشيخ الصاوى والشيخ الفيومى بان يكتبا الى العلماء الهاربين بالعودة الى القاهرة مقابل عهود كتبها بونابرت لهم بالامان . ولكن مرسوم ٢٥ يوليو والقائمة الواردة فى الجبرتي نفسه لا يرد فيها اسم الجبرتي بين اسماء الوزراء . والمرة الاولى التى يرد فيها اسم الجبرتي وزيرا ، هى فى تشكيل الديوان بعد مقتل كليبر ، أى فى عهد عبد الله مينو . كذلك لم يرد للجبرتي اسم فى تشكيل البرلمان الاول الذى انشأه بونابرت لا فى صورته الموسعة قبل ثورة القاهرة الاولى ولا فى صورته المختزلة بعد ثورة القاهرة الاولى . فهل كان الجبرتي يعيش فى عزلة عن السياسة فى عصره ؟ وهل يستخلص من عدم مشاركته فى السلطة ابان المرحلة الاولى من الحملة الفرنسية انه كان من المقاطعين للحكم الفرنسى حتى ولاية عبد الله مينو ثم جد ما اقنعه بجواز التعاون مع الفرنسيين بعد مقتل كليبر

الحق ان هذه حلقة غامضة فى سيرة الجبرتي . ولكن موقفه وسلوكه ايام بونابرت وكليبر كما حددهما لنا بنفسه فى « عجائب الاثار » ، يدلان على انه لم يكن له موقف معين معاد للحكم الفرنسى أكثر من سواه من العلماء سواء فى الفكر أو فى الحياة . فهو حسب ما روى لنا وكما يتجلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى كتابه كان شديد الاهتمام منذ اللحظة الاولى باستقصاء كافة أخبار هذا العهد الجديد وجمع كافة الوثائق الخاصة به ما استطاع الى ذلك سبيلا بروح المؤرخ الموضوعى الراغب فى المعرفة وبروح المتأمل اليقظ المحلل لما يدور حوله من أحداث ، وليس بروح الوطنى الملتهب الرافض لكل ما حوله من أفكار وأفعال ، ولا بروح الثائر المتعصب للخلافة العثمانية لا يرى غير حكمها حكما شرعيا للبلاد . وهو منذ اللحظة الاولى يعلن لنا انه خالط علماءهم وبعض رجالاتهم وانه يحدثنا عنهم حديث العارف بأفعالهم المطلع على أفكارهم

فمنذ اللحظة الاولى أحس الجبرتى أنه بازاء حضارة جديدة أرقى من حضارة الترك والمماليك ، لا فى مقوماتها المادية فحسب ، ولكن فى كثير من قيمها الاجتماعية ونظمها السياسية . ولاشك أن الجبرتى قد اثبت تحفظاته العنيفة بالنسبة الى بعض القيم الاخلاقية والروحية والاجتماعية التى جاءت بها الحملة الفرنسية سواء كما رآها فى الفرنسيين أنفسهم أو كما رآها فى المصريين المتأثرين بهم ، ولكن هذا لم يحل دون وقوفه موقف المبهور بعديد من المقومات المادية والفكرية والاخلاقية لهذه الحضارة الجديدة سواء على المستوى الاجتماعى أو على المستوى الفردى ، ولم يخش ملامة معاصريه بعقد المقارنات بين فضائل الفرنسيين ورذائل الترك والمماليك فى عديد من الوجوه

انظر مثلا الى الجبرتى وموقفه من المجمع العلمى المصرى الذى انشاه بونابرت بمرسومه المؤرخ ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ من ثمانية واربعين عضوا ، منهم اثنا عشر عضوا فى قسم الرياضيات ، واثنا عشر عضوا فى قسم العلوم الطبيعية ، واثنا عشر عضوا فى قسم الاقتصاد واثنا عشر عضوا فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قسم الاداب والفنون ، وهو اول اكاديمية للعلوم والفنون والاداب عرفتها مصر الحديثة ، وقد ضمت صفوة العلماء والفنانين والادباء الذين جاءوا الى مصر مع الحملة الفرنسية لمسحها ودراستها ، وكانت ثمرة عملهم ذلك الكتاب الجليل « وصف مصر » « فى عشرة مجلدات من الابحاث وأربعة عشر مجلدا من اللوحات » وقد تم نشره بين ١٨٠٩ و ١٨٢٨

وهذه قصة المجمع المصرى كما رواها الجبرتى عن خبرة شخصية ، فقد كان احد علماء الازهر الذين كانوا يترددون على مكتبته للاطلاع ، وعلى معامله ومراصده ومتاحفه للوقوف على العلوم الحديثة ، وعلى ندواته للاستماع الى ما يقرؤه فيها علماؤه من بحوث ولمناقشة هذه البحوث

« (ومنها) أنهم أحدثوا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية ابنية وكرانك وابراجا ووضعوا فيها عدة من آلات الحرب والعساكر المرابطين فيه وهدموا عدة دور من دور الامراء وأخذوا انقاضها ورخامها لابنيتهم وأفردوا للمدبرين (يقصد المديرين) والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت مثل بيت قاسم بيك وأمير الحاج المعروف بأبى يوسف وبيت حسن كاشف جركس القديم والجديد الذى أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد ، وعند تمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة (يقصد الحملة الفرنسية) ففر مع الفارين وتركه : فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان (يقصد أمناء مكتبة) ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة (يقصد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاطلاع) ، فيراجعون فيها مرادهم ، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون فى فسحة المكان (يقصد القاعة) المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة (يقصد منضدة كبيرة) ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها لهم الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من العساكر . واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد والاقاليم (يقصد الخرائط) والحيوانات والطيور والنباتات ، وتواريخ القدماء وسير الامم وقصص الانبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الافكار . ولقد ذهبت اليهم مرارا واطلعوني على ذلك ، فمن جملة ما رايته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظر الى السماء كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف وفى صفحة اخرى صورة الخلفاء الراشدين وفى الاخرى صورة المعراج والبراق ، وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس وصورة بيت المقدس والحرم المكى والمدنى وكذلك صورة الائمة المجتهدين وبقية الخلفاء والسلاطين ، ومثال أسلامبول (يقصد ماكيت أو نموذج مصغر لها) وما بها من المساجد العظام كأيا صوفيه وجامع السلطان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محمد وهيئة المولد النبوى وجمعية اصناف لفئات الفرق المختلفة وارباب الحرف والصناعات التى كانت تشترك فى موكب المولد النبوى ، وكذلك السلطان سليمان وهيئة صلاة الجمعة فيه ، وابى ايوب الانصارى وهيئة صلاة الجنازة فيه ، وصور البلدان والسواحل والبحار والاهرام وبرابى الصعيد (يقصد المقابر الاثرية) والصور والاشكال والاقلام المرسومة بها ، وما يختص بكل بلد من اجناس الحيوان والطيور والنبات والاعشاب وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الاثقال ، وكثير من الكتب الاسلامية مترجم بلغتهم . ورايت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ، ويعبرون عنه بقولهم شفاء شريف ، والبردة للبوصيرى ، ويحفظون جملة من أبياتها (ربما يقصد مخطوطة قديمة لبعض أبياتها) وترجموها بلغتهم .

ورايت بعضهم يحفظ سورا من القرآن ، ولهم تطلع زائد للعلوم واكثرها الرياضة ومعرفة اللغات واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار . وعندهم كتب مفردة (يقصد مخصصة) لانواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل مايريدون من اى لغة كانت الى لغتهم فى أقرب وقت

« وعند توت الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن المصنوعة من الصفر المموه ، وهى تركيب ببراريم (يقصد مسامير قلاووظ) مصنوعة محكمة كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة (يقصد دقيقة) بحيث اذا ركبت صارت آلة كبيرة اخذت قدرا من الفراغ وبها نظارات وثقوب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينفذ النظر منها الى المرئى واذا انحل تركيبها وضعت فى ظرف صغير (يقصد بهذا وصف الميكروسكوب) . وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وأرصادها ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها (يقصد بهذا وصف التليسكوب) وأنواع المنكابات والساعات التى تسير بثوانى الدقائق الفريبة الشكل الغالية الثمن وغير ذلك

«وافردوا لجماعة منهم بيت ابراهيم كتخذا السنارى، وهم المصورون لكل شىء ، ومنهم ريجو المصور Rigo وهو يصور صور الادميين تصويرا يظن من يراه انه بارز فى الفراغ مجسم يكاد ينطق ، حتى انه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته فى دائرة ، وكذلك غيرهم من الاعيان ، وعلقوا ذلك فى بعض مجالس سارى عسكر (يقصد بونابرت)

«وآخر مكان يصور الحيوانات والحشرات وآخر يصور الاسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها ، ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لايوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لايتغير ولا يبلى ولو بقى زمنا طويلا

« وكذلك افردوا اماكن للمهندسين وصناع الدقائق، وسكن الحكيم رويا « يقصد الصيدلى Royer » ببيت ذى الفقار كتخذا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحيقه واهوانه فى ناحية وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والادهان واستخراج الاملاح وقدورا عظيمة وبرامات وجعل له مكانا أسفل وأعلى وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة ، وبها كذلك عدة من الاطباء والجرايحية (يقصد الجراحين)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« وافردوا مكانا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع وآلات تصاعيد الارواح وتقاطير المياه وخلاصات المفردات وأملاح الارمدة المستخرجة من الاعشاب والنباتات ، واستخراج المياه الجلاءة والحلالة . وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلف الاشكال والهيئات على الرفوف والسدلات وبداخلها انواع المستخرجات . (ومن اغرب مارايته فى ذلك المكان) أن بعض المتقيدين لذلك اخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجه فصب منها شيئا فى كأس ثم صب عليها شيئا من زجاجة اخرى فعلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس وصار حجرا اصفر فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه اخرى فجمد حجرا ازرق وباخرى فجمد حجرا احمر ياقوتيا . وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة (يقصد البندقية) انزعجنا منه ، فضحكوا منا . واخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم ففمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح فى الداخل بالرصاص وأدخل معها اخرى على غير هيئتها وانزلهما فى الماء واصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى احدهما ، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة ، وابرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الاخر الشعلة اليها فى الحال ، فخرج مافيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل ايضا ، وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف ، ويظهر له صوت وطقطقة ، واذا مسك علاقتها شخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الاخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام اكتافه وسواعده فى الحال برجة ذلك ولو كانوا ألفا أو أكثر (يقصد بقوة التيار الكهربائى) . ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا

«وأفردوا أيضا مكانا للنجارين وصناع الآلات والاخشاب وطواحين الهواء والعربات واللوازم لهم فى أشغالهم وهندساتهم وأرباب صنائعهم . ومكان آخر للحدادين وبنوا فيه كوانين عظاما وعليها منافيخ كبار يخرج منها الهواء متصلا كثيرا بحيث يجذبه النافخ من أعلى بحركة لطيفة . وصنعوا السندانات والمطارق العظام لصناعات الآلات من الحديد والمخارط ، وركبوا مخارط عظيمة لخرط القلوزات الحديد العظيمة ، ولهم فلكات مثقلة يديرها الرجال للمعلم الخراط للحديد بالاقلام المتينة الجافية وعليها حق صغير معلق مثقوب وفيه ماء يقطر على محل الخرط لتبريد النار الحادثة من الاصطكاك ، وبأعلى هذه الامكنة صناع الامور الدقيقة مثل البركارات (يقصد الفرجارات أو البراجل) وآلات الساعات والآلات الهندسية المتقنة وغير ذلك » « (عجائب الآثار ج٣/٣٤ ـ ٣٦)

فالجبرتى اذن يصف لنا كيف كان يتردد على المجمع المصرى يقرأ فى مكتبته أو يتأمل متحف التاريخ الطبيعى الملحق به أو يتمعن ما فيه من صور ولوحات رسمها الفنانون الوافدون مع الحملة الفرنسية من امثال دينون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Denon ودوتيرتر Dutertre وريدوتيه Redouté وريجو Rigo ، أو يدرس الفلك فى مرصده تحت اشراف الفلكى نوويه Nouet ، أو يزور معامل الطبيعة والكيمياء فيه ليقف بنفسه على كيفية توليد الكهرباء أو ليقف بنفسه على ما تفعله الاحماض بالاحماض . وفى ردهات المجمع المصرى وقاعاته ومعامله كان الجبرتى يلتقى بعلماء الطبيعة من أمثال برتوليه Bertollet وكونتيه Conté أو دولوميو Dolomieu ، وجوفروا سانت هيلير ، Geoffroy Saint-Hilaire والدكتور ديجنيت Degenettes أو يلتقى بالجراح ديبوا Dubois وبالجراح لارى Larrey أو يلتقى بعالم الحشرات سافينى Savigny أو بالكيميائى ديكوتيل Decotils أو بعالم النبات ديليل Delille أو بالمهندس شامبى Champy كان الجبرتى يتردد على المجمع المصرى آنا بمفرده وآنا بصحبة الشيخ السادات وآنا بصحبة صديقه الشيخ حسن العطار أو صديقه اسماعيل الخشاب . وقد نشأت بينهم وبين بعض العلماء والفنانين ألفة أو نوع من الصداقة المشوبة بالاعجاب ، حتى أن الخشاب قال فى المصور ريجو شعرا ، وفى الحديث الذى أجراه الرحالة الايطالى بروكى مع الجبرتى الشيخ فى أول ديسمبر ١٨٢٢ استفسر الجبرتى من زائره الايطالى عن الفلكى نوويه الذى لم يكن احدهما يعلم أنه كان قد مات فى ١٨١١ ، كما ذكر لبروكى أن نوويه كان يتقاضى ريالين يوميا عن عمله مما كان يتيح له التفرغ والتوافر على البحث العلمى ، واشتكى له من انقراض علم الفلك فى مصر لان الحاكم لا يريد أن ينفق على العلماء . وكل هذا يدل على ان الجبرتى كان يعرف نوويه معرفة شخصية حميمة . وفى هذا ما يدل على أن محمد على كان شديد السخاء فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الانفاق على العلوم والفنون التطبيقية ، اما العلوم والفنون النظرية التى ليس لها نفع مباشر فقد قبض يده عنها

وواضح من هذا الوصف المشبع بروح التقدير لاحترام الفرنسيين للعلم والراغبين فيه حتى ولو كانوا من غير جنسهم وملتهم أو من بسطاء الناس كجنود الجيش الفرنسى ، والمشبع بروح الانبهار بفتوحات العلم الحديث ، ان الجبرتى سار مسيرة حسن العطار واسماعيل الخشاب فى التنبه الى أهمية العلوم الوضعية والانسانية وضرورتها لترقية الامم والافراد . والجبرتى لم يكتب هذا الكلام فى عهد الحملة الفرنسية ، حتى يقال انه وقع تحت تاثير الترغيب أو الترهيب،وانما كتبه بعد ان أصبح الفرنسيون فى خبر كان ، فقد بدأ الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار » عام ١٨٠٥ ، وهو عام تولى محمد على حكم مصر ، وظل يدون تاريخه حتى وفاته فى عام ١٨٢٥

وقد كانت حلقات البحث والندوات العلمية التى يقيمها اعضاء المجمع المصرى ويقرءون فيها تقاريرهم العلمية ويطرحونها للمناقشة مفتوحة للمصريين ، أو على الاقل للمثقفين منهم ، كما كانت قاعات معامله ومتاحفه ومكتباته مفتوحة لهم . وقد كان بونابرت وهو عضو فى المجمع المصرى حريصا على اطلاع مشايخ الديوان على معجزات العلم الحديث فدعاهم الى اجتماع اشترك فيه العلامة الرياضى Monge والكيميائى برتوليه Bertollet ليروا كيف تستخرج المفرقعات وكيف تتفاعل الاحماض وكيف تستولد الكهرباء وكيف يسرى تيارها فى الأجسام مهما بعدت . ويذكر ان الشيخ خليل البكرى سأل برتوليه تعقيبا على ما رآه اذا كان يستطيع ان يكون فى مراكش وفى القاهرة فى وقت واحد ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فصمت برتوليه ولم يعرف بماذا يجيب ، غالبا لانه لم يفهم بالضبط ما المراد من هذا السؤال الغريب الخبيث . وهنا قال له الشيخ خليل البكرى : الا ترى انك لست ساحرا ؟ ولعل الشيخ خليل البكرى أراد أن يقول للفرنسيين متهكما : لا تبتهجوا بذكائكم . أنتم أتيتم البنا بكل هذه العلوم المادية الرائعة ، ولكنكم نسيتم أنها مجرد ألاعيب صبيانية بالقياس الى رياضتنا الروحانية التى جعلت سيدنا الخضر وغيره من أولياء الله يملكون القدرة على الوجود فى اكثر من مكان فى وقت واحد . لقد كان فى هذا الموقف حضارة كاملة تواجه حضارة كاملة . وفى مناسبة أخرى ذكرها العالم جومار Jomard ان سانت هيلير ، بعد أن فرغ من قراءة بحث له امام المجمع المصرى فى موضوع أسماك النيل وقف احد المشايخ الحاضرين وطلب الكلمة ثم أخذ يشرح بطلان كل هذه الابحاث التى يتباهى بها العلم الحديث لان الدين قد حسم الامر حين علم الناس ان الله خلق ٣٠٫٠٠٠ نوع من أنواع الاحياء ، منها ١٠٫٠٠٠ نوع تسكن الارض والجو ومنها ٢٠٫٠٠٠ نوع تسكن الماء . مرة أخرى : لقد كانت حضارة كاملة فى مواجهة حضارة كاملة

أما الجبرتى والعطار والخشاب ، فلم يكونوا من هذا الفريق المحافظ الذى لا يريد الخروج من مدار العلوم النقلية ، بل كانوا كما نقول اليوم طليعة المثقفين المصريين فى ذلك العصر الغريب العجيب الرهيب الذى تصدعت فيه حضارة العصور الوسطى وتشققت اطرها المتحجرة تشقق البيضة لتخرج من قشرتها شرنقة العنقاء الجديدة . ولم ير الجبرتى رغم محافظته فى بعض الوجوه ان العلوم الزمنية من نظرية وتجريبية ووصفية لازمة لبناء الامم فحسب ، بل تجاوز ذلك الى الوقوف فى احترام أمام بعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفنون المرفوضة فى بيئته المحافظة والتى ظلت مرفوضة فى مصر والشرق القريب بعامة منذ ان ظهرت ديانات التوحيد ، خشية الفتنة الوثنية ، مثل فن التصوير وفن النحت . واهم ما يلاحظ على موقفه ازاء ما عرض عليه من لوحات دينية تمثل الرسول والصحابة والخلفاء الراشدين انه لم يقشعر لرؤيتها ويندد بها كما كان ينبغى ان يفعل بل اخذها مأخذ الفن وقبلها قبول الفن ولم ير فيها ملامح وثنية او آيات تفسدبها عقائد الناس أو حتى تطاول على المعتقدات الدينية ، بل هو يصفها بأنها صور رسمت « على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم » ، أى على قدر مبلغ تصورهم وتخيلهم استنادا الى ما ورد فى السير من أوصاف ، لا شك على غرار ما يفعلون بصورة المسيح ومريم والحواريين والقديسين

هذا العقل المتفتح كان احد طلائع الفكر التقدمى المصرى نحو ١٨٠٠ المتمثل فى ثلاثة من اجلاء علماء الازهر ، وهم الجبرتى والعطار والخشاب . اما قبول أسس الحياة المادية الجديدة من علوم بحتة أو تجريبية أو تكنولوجية ، فقد كان يسيرا أمره حتى على الرجعيين والسلفيين والمحافظين . فقد اثبت تاريخ الحضارات ان الناس أكثر مبادرة الى الاخذ بما فيه تقدمهم المادى ورخاؤهم الدنيوى منهم الى الاخذ بما فيه رقيهم الفكرى والاخلاقى والوجدانى وعامة ما اصطلحنا على تسميته بالقيم الانسانية ، وهذا الصدع الحضارى المتمثل فى قبول التجدد بالمادة ورفض التجدد بالفكر هو من مظاهر التمزق الحضارى الذى كثيرا ما يودى بالمجتمعات والافراد فى عصور الانتقال . فاذا راينا بيننا رجالا كعبد الرحمن الجبرتى قبلوا تجدد الكيان الاجتماعى بالمادة وبالفكر جميعا فقد وجب أن نقف أمامهم فى احترام عظيم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ــ تحرير المرأة ١٨٠٠

فى بعض تواريخ الحملة الفرنسية أن النساء فى رشيد قمن بمظاهرة طالبن فيها حاكم رشيد ، الجنرال عبد الله مينو ، بأن يتدخل حتى يسمح لهن رجالهن بالتردد على الحمامات العامة فى المدينة ، وأن تخصص بعض هذه الحمامات للنساء . وهذه فيما نعلم أول مظاهرة نسائية قامت فى مصر على الاقل فى العصر الحديث . أما كيف نشأت هذه المظاهرة ، فربما نبتت فكرتها فى اسرة الشيخ على الرشيدى الذى تزوج عبد الله مينو ابنته بعد أن أشهر اسلامه ، ثم جعله وزيرا عندما تولى حكم مصر بعد مقتل كليبر . وقد ورد فى تاريخ الحملة الفرنسية لجونكيير ان صهر عبد الله مينو هذا كان صاحب حمامات فى مدينة رشيد ، وربما كان أميرا فى دولة الحمامات . وبهذا يبدو فى الظاهر أن هذه المظاهرة النسائية قد قصد بها الى ترويج بضاعته وملء خزانته . ولكن ايا كانت أسبابها وملابساتها ، فالذى لاشك فيه أن خروج نساء رشيد فى مظاهرة عامة يجب ان يعد حدثا هاما فى تاريخ المرأة المصرية وفى تاريخ الدعوة لتحرير المرأة فى مصر

وفى تاريخ الجبرتى لعام ١٨٠٠ (تحت شهر ذى الحجة سنة ١٢١٥ هـ) وصف لبدايات حركة السفور فى مصر ، ووصف لبدايات حركة تحرير المرأة ، ووصف لما أصاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعض نساء القاهرة من الانطلاق نتيجة لمخالطة المصريين للفرنسيين ومحاكاتهم فى الزى وفى السلوك وقد كان الجبرتى رغم تفتحه لبعض وجوه الحضارة الفرنسية ، كالاهتمام بالعلوم والاداب ، وكالتنظيم السياسى والاجتماعى والمدنى وكالنظام القضائى ، وكالتقدم التكنولوجى ، وكالاهتمام بالتعمير والعمران الخ .. محافظا أشد ما تكون المحافظة فى كل ما يتصل بتغيير أوضاع المرأة الشخصية والاجتماعية ، رافضا كل الرفض لما كان يراه حوله من مظاهر الخروج على التقاليد والاخلاق الجنسية المستقرة .. فهو يقول فى امتعاض شديد :

« ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة ، فمالت اليهم نفوس اهل الاهواء من النساء الاسافل والفواحش ، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الاموال لهن

« وكان ذلك التداخل اولا مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة فى اخفائه فلما وقعت الفتنة الاخيرة بمصر ، وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا فى أهلها وغنموا أموالها واخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات ، صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزى نسائهم واجروهن على طريقتهن فى كامل الاحوال ، فخلع اكثرهن نقاب الحياء بالكلية ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« وتداخل مع اولئك المأسورات غيرهن من النســـاء الفواجر ، ولما حل بأهل البلد من الذل والهوان وسلب الاموال واجتماع الخـيرات فى حـــوز الفرنسيس ومن والاهم ، وشدة رغبتهم فى النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ، ولو شـــتمته أو ضربته بتأسومتها (يقصد جزمتها) ، فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار ، واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس الى الشهوات ، وخصوصا عقول القاصرات «وخطب الكثير منهم بنات الاعيان وتزوجوهن رغبـــة فى سلطانهم ونوالهم ، (غير واضح ان كان المقصـــود رغبة الفرنسيين فى الظفر بسلطان الاعيان المصريين ونوالهم كما يدل النحو أو رغبة المصريين فى الظفر بسلطان الفرنسيين ونوالهم كما يدل السياق) فيظهر حالة لعقد الاســـلام وينطق بالشهادتين لانه ليس له عقيدة يخشى فسادها ، وصار مع حكام الاخطاط منهم النساء المسلمات متزيات بزيهم ، ومشوا معهم فى الاخطاط للنظر فى امور الرعية والاحكام العادية والامر والنهى والمنـــاداة ، وتمشى المراة بنفسها أو معها بعض أترابها واضيافها على مثل شكلها ، وامامها القواسة والخدم بأيديهم العصى يفرجون لهـــن الناس مثل ما يمر الحاكم ، ويأمرن وينتهين فى الاحكام ..

«ومنها انه لما اوفى النيل اذرعه ودخل الماء الى الخليج وجرت فيه السفن ، وقع عند ذلك من تبرج النســـاء واختـــلاطهن بالفرنسيين ومصاحبتهن لهم فى المراكب ، والرقص والغناء والشرب فى النهار والليل فى الفوانيس والشموع الموقدة ، وعليهن الملابس الفاخـــرة والحـلى والجواهر المرصعة ، وبصحبتهم آلات الطرب وملاحـــو السفن يكثرون من الهزل والمجـون ويتجـــاوبون برفع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصوت فى تحريك المجاديف بسخيف موضوعاتهم وكثائف مطبوعاتهم ، وخصوصا اذا دبت الحشيشة فى رءوسهم وتحكمت فى عقـــولهم ، فيصرخون ويطلبون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة الفاظ الفرنساوية فى غنائهم وتقليد كلامهم شىء كثير

« واما الجوارى السود فانهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الانثى ذهبن اليهم افواجـــا فرادى وازواجا ، فنططن الحيطان وتسلقن اليهم من الطيقان ودلوهم على مخبآت اسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك » . (« عجائب الاثار » ٣ـ ١٦١ ـ ١٦٢)

هذا الوصف الحى لحالة شرائح من المجتمع المصرى عام ١٨٠٠ يستحق ان نقف عنده طويلا فى تأمل وتحليل. فبصرف النظر عن تعليقات الجبـرتى المعبرة عن آرائه الخاصة فى الموقف ، وبصرف النظر عما يستخـدمه من نعوت وصفات لاظهار سخطه على ما كان يجرى أمامه من مظاهر التغير الاجتماعى ، فان ما كان يجـرى بالفعل فى بعض قطاعات المجتمع المصرى نحو ١٨٠٠ يمكن استخلاصه بعد استبعاد عبارات التنديد التى يترجم بها الجبرتى عن مشاعره كمصرى عاصر تلك التحولات

فالواضح من كلام الجبرتى انه لا يحدثنا عن مجرد طبقة النسـاء الساقطات (الفواحش بلفته) اللواتى يماشين الجنود عادة فى كل جيوش الاحتلال فى كل مكان فى الدنيا ، وانما يحدثنا عن فئات عديدة من مختلف الطبقـات من أسفل السلم الاجتماعى الى أعلاه ، أو هو على الاصح يحدثنا عن ظاهرة اجتماعية ظهرت وتفشت فى عصره ولا يحدثنا عن مجرد حالات فردية من السلوك الفردى

والذى يفهم من كلام الجبرتى اذا قبلناه بحذافيره ، هو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انه كانت هناك « ثورة نساء » أو « ثورة حريم » فى مصر ، أو على الاقل فى القاهرة ، عام ١٨٠٠ ، فقوله أن من الحوادث الجسام « تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء » كلام خطير اذا كان الجبرتى لا يلقى الكلام جزافا ، لان كلمة « غالبهن » مهما حملناها معنى المبالغة الناجمة عن الانفعال ، فهى بغير شك تدل على وفرة عدد النساء اللواتى خرجن على التقاليد حول عام ١٨٠٠ الى حد جعل من خروج النساء على التقاليد سمة واضحة من سمات ذلك العصر ، دون أن تكون الثائرات بالضرورة « غالبية » النساء بالمعنى الاحصائى الدقيق

وبتحليل كلام الجبرتى عن أسباب هذا الذى يسميه « التبرج » و « الخروج عن الحشمة والحياء » نجد أنه ينسبه الى سبب واحد وهو اختلاط المصريين بالفرنسيين ، أو بكلمات أدق اختلاط المصريات مع الفرنسيين فى تلك الفترة على حد وصف الجبرتى ، وهو وصف يفض من قيمته التاريخية ان الجبرتى لا يشير بتاتا الى موقف الرجال من هذا الاختلاط ، كأن مصر لم يكن بها رجال لهم ولاية على النساء فى ذلك العصر ، وهو مستحيل التصديق ما دمنا نتحدث عن انطلاق « غالبية » النساء أو الكثرة الكثيرة منهن . فما دام الجبرتى لم يقصر كلامه على مجتمع الساقطات ، وانما تجاوز به حدود هذا المجتمع المحدود ، لم يكن هناك مناص من استخلاص أن هذا « التداخل » كما يسميه و « الاختلاط » بلغة اليوم ، كان اختلاط أسر أو اختلاطا اجتماعيا بالمعنى الكامل ، وانه كان يتم بعلم الرجال الاولياء على النساء وفى حدود النطاق الذى رسموه ، ان لم يكن بالفعل فعلى الاقل من ناحية الشكل . اذ لا يعقل أن نتصور حرائر مصر فى ذلك العهد من زوجات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبنات قد خرجن لمخالطة الفرنسيين أو محاكاة الفرنسيات في الزى وفى السلوك بغير رضا القوامين عليهن من الرجال. وهذا يدل على أن عبارة « فمالت اليهم نفوس اهل الاهواء من النساء الاسافل والفواحش ، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الاموال لهن » لا تشير الى طبقة سفلى او الى مهنة الفواحش ، وانما السفالة والفحشاء هنا مدلولات وأحكام أخلاقية تعبر عن موقف الجبرتى مما كان يراه حوله من مظاهر التحرر فى المظهر والسلوك بين نساء مصر . والدليل على ذلك أن الجبرتى يضيف : « وكان ذلك التداخل أولا مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة فى اخفائه » فلو انه كان يتحدث عن مجتمع الساقطات والفواحش بالمعنى الاجتماعى ، لما كان هناك مجال للكلام عن الاحتشام واتقاء العار والحرص على التستر، لأن بنات هذه المهنة لسن بحاجة الى الاحتشام ولا قادرات عليه ، ولسن مسئولات حتى يبتغين الحرص على التستر واتقاء العار . فهو اذن يتحدث عن الحرائر من ربات البيوت وبناتها وعن سيدات المجتمع ، وهؤلاء ما كان يمكن أن يخالطن الفرنسيات والفرنسيين الا برضا الاولياء عليهن

ويستفاد من وصف الجبرتى أن تحرر المراة المصرية فى عصر الحملة الفرنسية قد تم درجة درجة : بدأ تلقائيا وفى حدود ضيقة ثم تفشى بعد ثورة القاهرة الثانية حين سبى الفرنسيون أجمل نساء بولاق وبناتها و « زبوهن بزى نسائهم وأجروهن على طريقتهن فى كامل الاحوال » أى البسوهن « الفستانات » والشيلان الكشمير المزركشة والمناديل الملونة وأبرزوهن سافرات وعلموهن ركوب الخيل وغير ذلك من العادات وأساليب السلوك وربما الافكار التى كانت تتميز بها المراة الفرنسية يومئذ . هؤلاء النسوة والبنات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السبايا لا شك من الحرائر ، لان الفواحش لسن بحاجة الى سبى أو أسر للانتقال من المجتمع المصرى الى مجتمع الفرنسيين . وما تم ذلك ـ ويبدو انه تم بسرعة مذهلة ـ حتى « تداخل مع هؤلاء المأسورات غيرهن من النساء الفواجر » اللواتى « استملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس الى الشهوات وخصوصا عقول القاصرات » و « الفواجر » هنا نعت اخلاقى وتعليق شخصى من عند الجبرتى وليس وصفا لطبقة او فئة او مهنة . وهكذا اتسعت طبقات النساء اللواتى حاكين المتفرنسات والعادات الفرنسية « فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار » بتأثير سبايا الفرنسيين المتحررات من بنات بولاق . وهو ايضا اجتهاد من الجبرتى غير معقول فى تفسير هذه الظاهرة ، لان العقائل والحرائر وصاحبات الحشمة والوقار لا يحاكين السبايا الا اذا كانت السبايا من العقائل والحرائر وصاحبات الحشمة والوقار ، اى الا اذا كن زوجات لاسبايا اى كان لهن وضع اجتماعى شرعى معترف بشرعيته

ومفتاح هذا الموقف موجود فى الجبرتى نفسه ، فهو يحدثنا عن اقبال الكثير من الفرنسيين (والأرجح انهم كانوا من طبقة الضباط والفنيين) الى اعتناق الاسلام والزواج من بنات اعيان المصريين استغلالا لنفوذهم واستفادة بمالهم أو العكس . فما ان كانت المرأة المصرية تتزوج من الفرنسى المسلم حتى تتزيى بزى المرأة الفرنسية وتتخلق بخلقها وتتطبع بسلوكها الاجتماعى . وما دام الجبرتى لا يشير الى عامل القهر فلا أحسب ان اعيان المصريين كانوا ليقبلوا الفرنسيين ازواجا لبناتهم مهما أشهروا اسلامهم الا اذا كانت هناك شريحة كبيرة من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الارستقراطية المصرية لا تجد غضاضة من مصاهرة الحكام ما دامت تجرى فى حدود الشرعية ، وهذا لا يتأتى مع المحافظة الشديدة ، وانما يدعو الى افتراض مجتمع من الاعيان متفتح لحضارة الفرنسيين قابل لقيمهم الاجتماعية والفكرية والسياسية واحسب ان الجبرتى الذى قبل ان يكون وزيرا فى عهد عبد الله جاك مينو ، بكل تحفظاته الاخلاقية هذه على تحرير المرأة ما كان ليقبل ان يزوج بنته من ضابط فرنسى اعتنق الاسلام الا اذا اطمأن الى ان هذا الزوج سيحجب زوجته ويرعى فيها تقاليد البلاد فى ذلك العصر

فالواضح اذن أن المجتمع المصرى نحو ١٨٠٠ قد تبلورت فيه فئات اجتماعية على مستويات مختلفة كانت لا ترى بأسا من مخالطة الاوروبيين عامة والفرنسيين خاصة ، ولا ترى بأسا من تفهم وجهة نظرهم عن المرأة سواء فى موضوع السفور والحجاب أو فى موضوع وضع المرأة فى الاسرة وفى المجتمع ، ولا سيما بالنسبة لوليها أبا كان أو زوجا أو أخا . ووصف الجبرتى لما أصابته بنات الارستقراطية المصرية أو بنات « الاعيان » يومئذ يدل على انهن بلغن من الشوط مداه فى تحرير المرأة المصرية حيث خرجت المرأة المصرية الى دواوين الحكومة وأقدمت على مشاركة زوجها فى تصريف امور الناس وربما كان هذا المدى مقصورا على فئة اجتماعية محدودة العدد ، ولكنه كان ظاهرة اجتماعية غير مألوفة فى عهد التزك والمماليك .

اما وصف الجبرتى لما كان يجرى من اشتراك المصريات فى مهرجانات وفاء النيل وفى حفلات الرقص والغناء والحفلات الساهرة بوجه عام ، فهو لا يوحى بأن المشاركات فى هذا الاختلاط كن من نفايات المجتمع ، فقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كن يظهرن فى « الملابس الفاخرة » و « الحلى والجواهر المرصعة » مما يوحى بأنهن كن من نساء الطبقات الميسورة

والجبرتى يرى ان أهم سبب من أسباب انجذاب المصريات الى هذا النهج الفرنسى من الحياة القائم على السفور وعلى اختلاط الجنسين هو ما لمسه من « خضوع » الرجل للمرأة فى المجتمع الفرنسى ، « ولو ضربته بتاسومتها » . ولا شك أن المساواة النسبية بين المرأة والرجل فى المجتمع الفرنسى يومئذ وتقاليد الفروسية التى توارثها الرجل الفرنسى فى معاملته للمرأة الفرنسية أو ما يسمونه «الكورتوازية» كانت بمثابة صدمة اجتماعية قوية للمجتمع المصرى الذى انسنى يومئذ ولقرون سلفت على سيادة الرجل المطلقة على المرأة ، وخضوع المرأة المطلق للرجل « ولو ضربها بتاسومته » . وليس عسيرا أن نتصور الجبرتى أو أى مصرى عادى عام ١٨٠٠ يقف فاغرا فاه من فرط الدهشة وهو يشاهد ضابطا فرنسيا يقبل يد سيدة فرنسية أو يحيطها بمختلف مظاهر الرعاية والاحتشاد ، وبحسب تقاليد الفروسية هذه عبودية مطلقة . وهذه النظرة فى الجبرتى الى العلاقة بين الجنسين فى المجتمع الاوروبى عامة والفرنسى خاصة تستحق التسجيل ، لاننا سنجدها فيما بعد ـ بعد ثلاثين سنة كاملة ـ فى رفاعة الطهطاوى ، وربما بصورة مخففة لا انفعال فيها ، ولكن الجوهر واحد على كل حال ، مما يدل على ان تحرير المرأة كان مرير المذاق للمصريين المستمسكين بالثقافة التقليدية وبالقيم التقليدية ، حتى لمن بادروا منهم الى اعتناق ضرورة الاخذ بأسس الدولة الحديثة

وربما كان أهم ما ورد فى الجبرتى عن موضوع تحرير المرأة هو تلك الفقرة التى تصور هرب « الجوارى السود »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من بيوت أسيادهن والتجائهن الى الفرنسيين طلبا للحرية، «لما علمن رغبة القوم في مطلق الانثى» ، اى فى تحرير المرأة كما نقول اليوم ، أو اطلاقها من عقالها . ويبدو ان هذه الانطلاقة المفاجئة كانت مقترنة بألوان من المغامرة العنيفة ، لأن الجوارى كن يلجأن الى نط الحيطان والخروج والدخول من النوافذ شأن السجناء لكى يصلن الى منازل الفرنسيين بل لقد بلغ من بغضهن لسادتهن انهن كن يرشدن الفرنسيين الى المخابىء التى يكنز فيها أولئك السادة أموالهم كى يصادرها الفرنسيون. وواضح من كلام الجبرتى عن رغبة الفرنسيين فى « مطلق الانثى » ، ان الحملة الفرنسية حين جاءت الى مصر جاءت ومعها أفكار الثورة الفرنسية عن تحرير المرأة ، وانها روجت بين المصريين لهذه المبادىء ما استطاعت الى ذلك سبيلا

كانت هناك اذن فئات عديدة من المجتمع المصرى نحو ١٨٠٠ فى كافة المستويات قد خالطت الفرنسيين اجتماعيا وتشبهت بهم أو حاولت أن تتشبه بهم وقبلت دعوتهم الى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل نظريا وعمليا . ومن العبث العابث أن نتصور بناء على ما قاله الجبرتى أن هذه الدعوة ما جرت الا بين النساء الفاسقات فلا شك أن المتفرنجات ، وهن بكل هذه الوفرة التى يصفها الجبرتى الى حد استخدام تعبير « غالب » النساء ، كن نساء يعشن فى كنف رجال ، وانها لتكون صورة كاريكاتورية للعصر حقا أن نتصور « غالب » نساء مصر وقد هجرن دورهن وفررن من رجالهن ولذن بمعسكرات الفرنسيين . وانما الذى يريد الجبرتى أن يصفه هو صورة فئات عديدة لا شبهة فى كثرتها على كل المستويات فى المجتمع المصرى، ما أن رفع عنها نير الترك والمماليك ولبست نير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفرنسيين ، حتى وجدت بين النيرين فرقا كبـــيرا وهو الفرق بين المستعمر الجـــاهل المتخلف الذى يعيش فى حضارة العصور الوسطى وفى ثقافة العصور الوســطى والمستعمر المتعلم المتقدم الذى يعيش فى حضارة العصر الحديث وفى ثقافة العصر الحديث • وقد كان الفرق بين النيرين واضحا أمام جميع المصريين ، ولكن الذى اختلفوا فيه هو أى النيرين أثقل وأى الغلين أحكم وأهلك • ولقـد كانت هناك فئات فى المجتمع المصرى حنت الى نير التـرك والمماليك لاسباب مختلفة وكانت هناك فئات فى المجتمع المصرى قبلت نير الفرنسيين لاســـباب مختلفة • وهذه الفئات وتلك كانت فيما يبدو قليلة العـــدد • أما الكثرة الغالبة من المصريين فهناك من شواهد التاريخ ما يدل على انها قبلت حضارة الغرب جزئيا أو كليا ولكنها رفضت نير الفرنسيين كما رفضت نير العثمانين

وليس هنـــاك ما يدعو الى الظـــن بأن كل من خالط الفرنسيين أو حاكاهم أو قبل وجوها من حضارتهم قـــد فعل ذلك عن مجرد افتتان بأسلوب الحكام فى الحيـــاة (وهو ظاهرة اجتماعية وانسانية) أو عن مصلحة ذاتية او رغبة فى التزلف الى الحكام ، رغم أن استشراء المنتفعـين سمة من سمات عصور الانتقال • ولا شك أن تحرير المرأة على النحو العملى هذا الذى وصفه الجبرتى كان « حركة » اجتماعية بالمعنى المألوف ، وتعبيرا عن رأى عام بين المثقفين وفى شرائح معينة من مختلف مســتويات المجتمع المصرى بضرورة الانفتاح لهذه الحضارة الحديثة والقيم الاجتماعية الحديثة التى جاء بها الفرنسيون من أوروبا وأدركت بعض فئات المصريين انها السبيل الى نهضتهم والى خروجهم من ظلام العصور الوسطى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنظر مثلا الى مأساة زينب البكرية ، بنت الشيخ خليل البكرى نقيب الاشراف أيام الحملة الفرنسية ، والى مأساة سيدة أخرى من سيدات ذلك العصر اسمها هوى ، والى مآسى نساء أخر ، قد رواها الجبرتى فى تسعة سطور ولكن من يتأملها يجدها تمثل مأساة عصر كامل سقط بين حضارتين فدفع ثمنا رهيبا لاجترائه على تحدى القديم قبل انتصار الجديد . يقول الجبرتى عن شهر يوليو ١٨٠١ تحت تاريخ شهر ربيع الاول سنة ١٢١٦ فى وصف الاحداث الرهيبة التى وقعت فى مصر أثر خروج الفرنسيين وعودة الاتراك العثمانيين الى احتلال البلاد :

« (وفى الثلاثاء رابع عشرينه) طلبت ابنة الشيخ البكرى ، وكانت ممن تبرجن مع الفرنسيس ، بمعينين (يقصد بمندوبين) من طرف الوزير (يقصد الوزير العثمانى أو الصدر الاعظم) فحضروا الى دار أمها بالجودرية بعد المغرب وأحضروها ووالدها فسألوها عما كانت تفعله فقالت : انى تبت من ذلك ، فقالوا لوالدها ما تقول أنت ، فقال : أقول انى برىء منها ، فكسروا رقبتها . وكذلك المرأة التى تسمى هوى التى كانت تزوجت نقولا القبطان ثم أقامت بالقلعة وهربت بمتاعها وطلبها الفرنساوية وفتش عليها عبد العال وهجم بسببها عدة أماكن كما تقدم ذكر ذلك فلما دخل المسلمون (يقصد العثمانيين) وحضر زوجها مع من حضر ، وهو اسماعيل كاشف المعروف بالشامى ، أمنها وطمنها وأقامت معه أياما فاستأذن الوزير فى قتلها فأذنه ، فخنقها فى ذلك اليوم أيضا ومعها جاريتها البيضاء أم ولده ، وقتلوا أيضا امرأتين من أشباههن » (« عجائب الاثار » ١٩٢/٣)

أما هذه البنت المسكينة ، زينب البكرية ، فقد جرت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشائعات يومئذ بأنها كانت على صلة ببونابرت ، ولكن ليس هناك أى دليل أو سند تاريخى يثبت أنها كانت حقا عشيقته ، وربما كان كل ذنبها أنها « تبرجت » بلفة الجبرتى ، أى سفرت ولبست الفستانات والمناديل الملونة والطرح الكشمير وخالطت المجتمع الفرنسى المختلط وتشبهت بالفرنسيات ، وربما كان كل ذنب هذه الفتاة المسكينة التى كانت لا تتجاوز السادسة عشرة من عمرها حين جاء بونابرت الى مصر ، أن مظاهر الحضارة الاوربية خلبت لبها وجعلتها تتمرد على تقاليد بيئتها المحافظة ،

فاتخذوا منها بعد رحيل الفرنسيين وعودة العثمانيين كبش فداء انتقاما من تعاون أبيها مع الفرنسيين وقبوله أن يقوم نقيبا للاشراف فى ظلهم بعد فرار السيد عمر مكرم . ولعل من المهم أن نلاحظ ان الذى ساق زينب البكرية الى نهايتها الاسيفة كان الوزير العثمانى ورجاله كما ذكر الجبرتى وليس المصريين

وهذا الاب البائس المذعور الذى قدر عليه ان يسلم ابنته لمدية الجزار لم ينس يومئذ ما حل به وبآله أيام ثورة القاهرة الثانية ، حين حكم القاهرة من الشارع معسكر العثمانيين والفوغاء لفترة وجيزة وصفها الجبرتى وصفا مثيرا :

« واتهم الشيخ خليل البكرى بأنه يوالى الفرنسيين ويرسل اليهم الاطعمة فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض أوباش العامة ونهبوا داره وسحبوه مع أولاده وحريمه وأحضروه الى الجمالية وهو ماش على أقدامه ورأسه مكشوفة وحصلت له اهانة بالغة وسمع من العامة كلاما مؤلما وشتما فلما مثلوه بين يدى عثمان كتخدا هاله ذلك واغتم غما شديدا ووعده بخير وطيب خاطره وأخذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سيدى أحمد بن محمود محرم التاجر مع حريمه الى داره واكرمهم وكساهم واقاموا عنده حتى انقضت الحادثة » (« عجائب الآثار » ٣/٩٤)

ولسنا هنا بسبيل محاكمة رجالات العصر وتحديد مدى مسئوليتهم عن التعاون مع الفرنسيين او مع العثمانيين . وتحديد دوافعهم الى ذلك ، وانما نحن امام مآس انسانية من أفظع طراز . فالذى لا شك فيه ان الشيخ خليل البكرى الذى عينه بونابرت نقيبا للاشراف من بعد فرار السيد عمر مكرم مع المماليك الى بر الشام ، كان يخالط كبار الفرنسيين ، ليس فقط سياسيا ، ولكن اجتماعيا كذلك ، كما جرت كتب التاريخ انه كان محبا للحياة ، وكان شرابه المفضل مزيجا من الكونياك والنبيذ البورجونى المعتق يشربه حتى الغيبوبة . وقد كانت تربطه ببونابرت ، شأنه فى ذلك شأن الشيخ أبى الانوار السادات والشيخ عبد الله الشرقاوى وغيرهما من كبار العلماء رابطة الفة من نوع ما ورابطة احترام متبادل ، ومجاملات اجتماعية كالتزاور وما اليه . بل انه فى حالة الشيخ خليل البكرى ، فانه تجاوز المجاملات الاجتماعية الى المجاملات الشخصية ، فقد أثر عنه انه أهدى مملوكه الخاص رستم زاده الى بونابرت ، وقد لازم هذا المملوك نابليون بقية حياته حتى منفاه فى سانت هيلانة . واذا كان الشيخ خليل البكرى مخالطا لصفوة المجتمع الفرنسى فى أيامه يومئذ ، فليس هناك شك فى أنه كان على علم بأن بنته زينب البكرية ، وحريمه بوجه عام ، كن يخالطن نظائرهن من الفرنسيات مخالطة اجتماعية ويتشبهن بهن ، ولم يكن خافيا عليه أن المجتمع الفرنسى مجتمع مختلط ليس فيه « حريم » . ففرنجة بنته وحريمه اذن كانت بعلمه ورضاه . وليس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبعد انه قد ترامت اليه الشائعات عن علاقة زينب البكرية ببونابرت

أما الفتاة البائسة الاخرى ، هوى ، وهى زوجة اسماعيل كاشف المعروف بالشامى ، فقد كانت محنتها لا تقل عن محنة زينب البكرية فظاعة . وقد روى الجبرتى مأساتها على النحو التالى تحت تأريخ مايو سنة ١٨٠١ (محرم ١٢١٦ هـ)

« (وفى ثانى عشره) نزلت امرأة من القلعة بمتاعها واختفت بمصر فاحضر الفرنسيس حكام الشرطة وألزموهم باحضارها وهذه المرأة اسمها هوى ، كانت زوجة لبعض الامراء الكشاف ، ثم انها خرجت عن طورها وتزوجت نقولا واقامت معه مدة ، فلما حدثت هذه الحوادث (يقصد هزيمة الفرنسيين أمام العثمانيين فى مشارف القاهرة برا وأمام الانجليز فى الاسكندرية بحرا) جمعت ثيابها واحتالت حتى نزلت من القلعة وهى على حمار ، ومتاعها محمول على حمار آخر ، فنزلت عند بعض العطف وأعطت المكارية الاجرة وصرفتهم واختفت . فلما وقع عليها التفتيش واحضروا المكارية قالوا : لا نعلم غير المكان الذى انزلناها به وأعطتنا الاجرة عنده . فشددوا على المكارية ومنعوهم من السروح وقبضوا على أهل الحارة وحبسوهم . ثم أحضروا مشايخ الحارات وشددوا عليهم وعلى سكان الدور ، واعلموهم انه ان وجدت المرأة فى حارة من الحارات ولم يخبروا عنها نهبوا جميع دور الحارة وعاقبوا سكانها . فحصل للناس غاية الضجر والقلق بسبب اختفائها وتفتيش أصحاب الشرطة ، وخصوصا عبد العال ، فانه كان يتنكر ويلبس زى النساء ويدخل البيوت بحجة التفتيش عليها ، فيزعج أرباب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البيوت والنساء ، ويأخذ منهن مصالح ومصاغا ويفعل ما لا خير فيه ولا يخشى خالقا ولا مخلوقا » . (« عجائب الآثار » ٣/١٧٧ ـ ١٧٨)

وقد فشلت شرطة الفرنسيين فى العثور عليها ، فلما دخلت عسكر العثمانيين القاهرة بعد ذلك بأسابيع ،وكان معهم زوج هوى السابق ، الذى كانت قد هجرته ، وهو أحد الامراء المماليك ، واسمه اسماعيل كاشف ، اهتدى هذا الزوج الى مكانها وطمأنها على حياتها واستدرجها بالحيلة الى الاقامة فى داره أياما ، واستأذن الوزير العثمانى فى قتلها فأذن له ، فخنقها فى نفس اليوم الذى قتلت فيه زينب البكرية ، وخنق معها جاريتها البيضاء التى كان قد أنجب منها بحسب ما روى الجبرتى. ويبدو ان هذا التاريخ كان مخصصا لاعدام النساء « المتبرجات» اذ يذكر امرأتين أخريين « من اشباههن » قد أعدمتا أيضا فى ذلك اليوم

ولا شك ان هذه الحوادث الدموية القت الرعب فى قلوب عديد من النساء المتفرنجات . نفهم هذا من قول الجبرتى أنه بعد انسحاب الفرنسيين واستتباب الامر فى أيدى الاتراك العثمانيين والمماليك لجأ كثير من هؤلاء النساء الى لبس الحجاب من جديد والزواج من الجنود العثمانيين اتقاء بطشهم وتأمينا لحياتهم . فالجبرتى يقول فى تاريخ أغسطس ١٨٠١ (ربيع الثانى ١٢١٦ هـ):

« (وفى يوم الاثنين رابع عشره) ، نودى على أن أهل البلدة لا يصاهرون العساكر العثمانية ولا يزوجونهم النساء . وكان هذا الامر كثر بينهم وبين أهل البلد ، وأكثرهم النساء اللاتى درن مع الفرنساوية ، ولما حضر العثمانية تحجبن وتنقبن وتوسط لهن أشباههن من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرجال والنساء وحسنوهن للطلاب ورغبوا فيهن الخطاب ، فأمهروهن المهور الغالية وانزلوهن المناصب العالية »

(« عجائب الآثار » ٣ / ١٩٤)

وواضح من هذا ان السلطات العثمانية ما كانت لتحرم هذه الزيجات لو انها كانت مجرد حالات فردية ، وانما تفشيها هو الذى دعا الى التدخل . وواضح أيضا ان اعمال العنف التى ارتكبت مع زينب البكرية وهوى زوجة اسماعيل الكاشف ، وهما من علية القوم ، ومع غيرهما من النساء المتفرنجات ، هى التى أثارت الذعر فى نفوس النساء المتفرنجات ، وفى نفوس الرجال الاولياء عليهن ، فبادرن وبادروا الى التخلى عن الفرنجة والتظاهر بالمحافظة ، بل وطلب الامان بالزواج من العثمانلية ، اللهم الا اذا افترضنا انه كانت هناك بين المصريين وقتئذ تجارة منظمة واسعة للرقيق الابيض فى خدمة جيوش الاحتلال من أى جنس كانت . والوصف الذى نجده فى الجبرتى لا يوحى بذلك ، وانما يوحى اصرار الجبرتى على تصوير حياة اليسر أو الثراء أو الترف التى كانت تحيط بهذه الزيجات المختلطة ، انها كانت تتم بين الطبقات الموسرة بوجه عام ، من « الاعيان » وغير الاعيان ، وليس بين نفايات المجتمع

وأيا كان الامر فالخلاصة العامة لكل هذا هو انه من المحقق ان بدايات حركة السفور فى مصر ، وحركة تحرير المرأة بوجه عام ، يمكن تاريخها بعام ١٧٩٨ ، وهو عام تشقق سور الترك العظيم الذى ضرب سياجا من حول العالم العربى كله وحال دون اتصاله بالحضارة الاوروبية اتصالا مباشرا ثلاثة قرون كاملة ، أى منذ أسس سليم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاول امبراطورية العثمانيين ، فما ان اتصلت مصر وغيرها من بلاد المشرق العربى بالحضارة الاوروبية اتصالا مباشرا بمجىء بونابرت حتى بدأت تتلاطم فيها مختلف تيارات الفكر الحديث والنظم الاجتماعية الحديثة ، وكان فى مقدمة هذه التيارات تيار السفور وتحرير المرأة . ولقد اندفق هذا التيار عنيفا أول الامر كما وصف الجبرتى بسبب وجود الفرنسيين فى مصر بين ١٧٩٨ و ١٨٠١ ، فأدى الى هذا التمرد الجماعى على حياة الحريم المتوارثة عن العثمانلية ، ذلك التمرد الجماعى الذى جعل الجبرتى يتأفف من « تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء » بتأثير الفرنسيين

ومن يقرأ كتاب الاديب الفرنسى جيرار دى نرفال « رحلة فى الشرق » (١٨٤٠ ـ ١٨٤١) ، يجد فى الفصل المسمى « نساء القاهرة » وصفا لحالة المرأة المصرية نحو ١٨٤٠ ، وفيه صورة لمجتمع رواد مسرح فى الموسكى «تياترو ديل كايرو » أى تياترو القاهرة بالايطالية شاهد فيه جيرار دى نرفال كوميديا فرنسية خفيفة أو فودفيل اسمها « مرسم الفنانين » . وكان جمهور الصالة قوامه بعض الاجانب المحليين من ايطاليين وأروام لابسين الطرابيش وبعض « موظفى الباشا » أو بعض « ضباط الباشا » (النص هنا يحتمل التأويلين) جالسين فى المقاعد الأمامية ، أما اللوجات فكانت تغص بالنساء وكلهن فى زى نساء الشرق وفى أفخر ثياب وعليهن أنفس الجواهر ، ولم تكن بينهن واحدة محجبة . ولم يرقه فى ماكياج هؤلاء السيدات ان أجفانهن وخدودهن كانت مثقلة بأصباغ هجرتها أوروبا منذ مائة عام ، كما ان أيديهن كانت مصبوغة بالحناء . ولم يكن هناك ما يميز اليونانية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن الارمنية عن اليهودية الا غطاء راسها وطريقة تصفيف شعرها . يقول دى نرفال :

« وأخيرا ، فلم تكن بين الحاضرات امرأة واحدة تلبس حجابا ، وبالتالى فلم تشهد العرض امرأة مسلمة بالمعنى الحقيقى ...

« وعند انصرافى من المسرح لبست كل هـؤلاء النساء الرافلات فى أفخر ثياب كساءهن الموحد ، وهو الحبرة المصنوعة من التافتا السوداء ، وغطين ملامحهن بالبرقع الابيض ، وركبن حميرا على طريقة المسلمات الطيبات ، تضيىء طريقهن مشاعل يحملها السياس »

أما طريقة « المسلمـات الطيبات » التى يشير اليهـا جيرار دى نرفال ، فهى تعنى طريقة المصريات الطيبات ، فهو فى مكان آخر يقول ان نساء الاقباط فى ذلك العصر كن يتحجبن كالمسلمات . ولكن الذى يسترعى النظر فى وصفه لهذا المجتمع من رواد المسرح أن قوامه كان من الاجانب المحليين ، ولكن كانت بينهم فئات من المصريين من كبار الموظفين ، وان الأجانب المحليين رجالا ونساء كانوا يتزيون بالزى المصرى الرسـمى أو الزى التركى يومئذ ، فالرجال لبسوا الطربوش والنساء لبسن الحبرة والبرقع ، لا مجاملة للمصريين ولكن خضوعا للبروتوكول العثمانى الذى كان سائدا فى بلاط الخديوى أو الوالى ممثل الباب العالى غير ان عبارة جيرار دى نرفال التى تقول بأن النساء اللواتى رآهن فى تياترو ديل كايرو لم يكن بينهن « امرأة مسلمة بالمعنى الحقيقى » ، عبارة غامضة ، فلقد يكون معناها ان كل الحاضرات كن من الاجنبيات المحليات ، ولقد يكون معناها أن الحاضرات من المصريات كن لا يمثلن المصريات فى شىء ، لخروجهن على تقاليد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجتمع المصرى وانفصالهن فى صورة مجتمع صغير متفرنج مبتوت الصلة بمجتمع الشارع الذى وصف دى نرفال فيه النساء المتحجبات فى ملابسهن السوداء وكأنهن مجتمع من الراهبات . والتخريج الاخير هو الارجح فى نظرى لان جيرار دى نرفال يذكر لنا ان روادالمسرح كن من الزوجات المترفات أو من سيدات المجتمع اللواتى تحمل كل منها ثروة زوجها حول جيدها أو على صدرها أو فى يدها ، ماسا وأحجارا كريمة من عقود وبروشات وخواتم يخطف بريقها الابصار . وهو مايوحى بأن موظفى الباشا قد اصطحبوا عقائلهم واجلسوهن فى اللوجات على عادة ذلك العصر

ولكن أيا كان الامر فهذه الصورة التى رسمها جيرار دى نرفال لنساء مصر نحو عام ١٨٤٠ ، قوامها بلفته « ان القاهرة ، بين مدن الشرق الادنى ، هى المدينة التى لاتزال فيها النساء أصرم تحجبا من سواها . ففى استانبول أو ازمير يسمح الموسلين الابيض أو الاسود أحيانا بالتكهن بملامح المسلمات الجميلات ، وقلما تؤدى الاوامر المشددة الى حملهن على تكثيف هذا النسيج الشفاف . فهن أشبه شىء براهبات رشيقات ذوات دلال وهبن حياتهن لزوج واحد ، ومع هذا فليس يشقيهن أن يحزن الرجال لذلك . أما مصر الوقورة التقية فهى دائما بلد الالغاز والاسرار : فالجمال فيها يحيط نفسه ، كما كان يفعل فى القديم ، بالاحجبة والانقبة ، وهذه النظرة الحزينةللحياة تصد الاوربى العابث فىغير عناء » . هذه الصورة المحافظة التى رسمها جيرار دى نرفال لنساء القاهرة فى ١٨٤٠ تختلف تمام الاختلاف عنالصورة المعربدة أو المنطلقة على اقل تقدير ، التى رسمها الجبرتى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لنساء القاهرة فى ١٨٠٠ . ولكن يبدو أيضا من كلام دى نرفال ان القاهرة لم تكن دائما على هـذه الدرجة من المحافظة والاحتشام . فهو يسجل ان الحياة فى القاهرة كانت أكثر بهجة وبهرجا قبل مجيئه بسنوات قليلة ، وأقل التزاما بمكارم الأخلاق :

« أقول الجد : ان الاخلاقيات المصرية شيء ذو طابع خاص . فمن سنوات قليلة كانت الراقصات تتجول بحرية فى المدينة ويملأن الاحتفالات العامة حيوية وينشرن المتعة فى الكازينوهات والقهاوى . أما الآن فهن لايستطعن الظهور الا فى البيوت وفى الاحتفالات الخاصة ، والحريصون من الناس يجدون أقرب الى الاحتشام رقص هؤلاء الرجال ذوى الملامح الانثوية والشـــعر الطويل الذين يحاكون باذرعتهم وقوامهم ورقابهم العارية مفاتن الراقصات نصف المستورة فيحدثون أسوأ الاثر »

وهذا يوحى بأن نهاية عهد محمد على وهزيمة مصر امام الاستعمار العثمانى والاوربى فى اواخر الثلاثينات من القرن الماضى قد صاحبها انتقاض رجعى على حرية المرأة وصاحبته عودة عنيفة الى « مجتمع الرجال » والى « مجتمع الغلمان » الذى ورثته مصر عن العصر التركى المملوكى قبل اتصال مصر بحضارة أوربا مباشرة سواء أيام الحكم الفرنسى أو فى عهد محمد على

فاذا رجعنا الى المؤرخ الآخر لعهد الحملة الفرنسية ، نقولا ترك (١٧٦٣ ـ ١٨٢٨) ، وهو أديب شامى ولد فى دير القمر بجبل الدروز وعمل فى خدمة الامير بشير الشهابى ، وكان أجداده من اروام استانبول وانتقلوا الى الشام ، فان الصورة التى يرسمها للحياة الاجتمـاعية تحت الحكم الفرنسى لاتختلف كثيرا عن الصـــورة التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رسمها الجبرتى ، ان لم تكن أشد منها محافظة لا من الناحية الاخلاقية ولكن من الناحية الطبقية ، فهو يقول :

« فلهذا السبب صعب جدا دخول الافرنج على المصريين فى هذه الديار ولاسيما اذ كانوا يروا نســاءهم وبناتهم مكشوفين الوجوه مملوكين من الافرنج جهارا ماشيين معهم فى الطــريق . نايمين قايمين فى بيوتهم ، فــكانوا يكادوا أن يموتوا من هذه المناظر ، وناهيك تلك الخمامير التى اشتهرت فى كامل أسواق المدينة جهارا ، حتى وفى بعض الجوامع أيضا هذه الروية والمنظر كانت تجعــل الاسلام يتنفسوا الصعداء ويطلبوا الموت فى كل ساعة . ولكن فى مدة الفرنساوية كانت الناس الدون فى أحسن حال ، من بياعين وشيالين وارباب صنايع وحمير وسياس وقوادين ونســـا خوارج ، وبالنتيجة الاناس الادنيــا (يقصد الطبقات الشعبية) كانوا منشرحين وسببه كان اطلاق الحرية . واما الشطر الثانى الاعلى والاوســط (يقصد الطبقة العالية والطبقة المتوسطة) شديد التعب جدا من كامل الملل لسبب وقوف الحال من عدم الداخل والخارج . ولكن مع هذا جميعه ان هذه المملكة العظيمة ما افتقرت الى شيء ، بل وفى كل هذه المدة كان موجود بها مايكفيها . » (« مذكرات نقولا ترك » ص ٣١)

هذه النظرة الطبقية الصريحة توحى بأن الطبقــات الشعبية كانت أشد الطبقات مخالطة للفرنسيين ، ويليها بحسب ماروى الجبرتى ، طبقة «الاعيان» من المصريين .

أما الطبقات الشعبية (« الاناس الادنيا » بالمعنى الطبقى لا بالمعنى الاخلاقى ، اى الطبقة الدنيا) فيفهم من كلام نقولا ترك ان دافعها الى هذا الاختلاط « اطلاق الحرية » . واما طبقة الاعيان فيفهم من كلام الجبرتى ان دافعها الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الاختلاط كان تبادل المصالح . والحصيلة العامة لكل هذا ان مركز المحافظة والاحتجاج على بلبلة القيم المتوارثة نتيجة الحكم الفرنسى ، كان محوره الاساسى أبناء الطبقة المتوسطة . فاذا نحن فهمنا قاموس الجبرتى الاجتماعى على ضـــوء قاموس نقولا ترك الاجتمـــاعى ، أدركنا أن مايردده الجبرتى من مفردات مثل « الاسافل » ، انما يراد به شيء قريب جدا مما نسميه اليوم « الفوغاء » و « الدهماء » وهم قوام الطبقات الفقيرة فى المجتمع ، ان كانت على حال سوية من العقل والوعى ســميناها « الشعب » و « الجماهير » وان كانت على حال مضطربة من العربدة والانفلات سميناها «الفوغاء» و «الدهماء» . وليس هناك من سبيل الى معرفة وضع هذه الطبقات الدنيا نحو ١٨٠٠ ، أكانت من جماهير الشـــعب أم من الفوغاء والدهماء الا بدراسة موضوعية للرأى العام المصرى يومئـذ وموقفه من الاســـتعمار التركى المملوكى ومن الاستعمار الفرنسى جميعا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ ــ الجبرتى وحكم القانون

الجبرتى اذن هو أول مفكر فى مصر الحديثة نستطيع أن نستخلص من آثاره موقفه من حضارة الغرب بصفة عامة ومن الفلسفات السياسية والاجتماعية التى كانت تتصارع فى عصره ، ولا سيما كما شـــاهدها معلنة فى بيانات الحملة الفرنســـية أو مطبقـــة فى التنظيمـــات السياسية والاجتماعية التى استحدثتها هذه الحملة

وللجبرتى أهمية خاصة لانه وقف من احداث هذه الفترة وتياراتها موقفين : موقف المؤرخ المفكر ، وموقف الوزير المسئول ، لانه اشترك فى عضوية الديوان الذى أنشأه عبد الله مينو

أما استقبال الجبرتى للحملة الفرنسية وما جاءت به من نظم وأفكار سياسية واجتماعية جديدة ، فيمكن أن نتتبعه من خلال وصفه لأحداث أوائل القرن التاسع عشر وتعليقاته عليها ، وهى لاتتخذ صورة تحليل منظم وانما تتخذ صورة تلوين الاحداث بآرائه ومعتقداته أو بآراء معاصريه ومعتقداتهم وهو يبدأ كلامه عن ســـنة ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ) عام نزول الفرنسيين أرض مصر فى بداية الجزء الثالث « من عجائب الآثار » بقوله :

« وهى أول سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضـــاعف الشرور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وترادف الامور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضـــوع وتتابع الاهوال واختلاف الاحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الاسباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم واهلها مصلحون »

واللافت للنظر هو استدراك الجبرتى الاخير على وقوع الكارثة ، ففيه معنى استحقاق اهل مصر لما نزل بهم من محنة الغزو الاجنبى . غير أنه من الصعب أن نحكم ان كان الجبرتى بهذه العبارة يشير الى فســـاد المجتمع المصرى قبل الحملة الفرنسية والى ما أشـــاعه الاتراك والمماليك بالذات فى عهد مراد بك وابراهيم بك من طغيان وظلم وسلب ونهب واستباحة لأرواح البشر وكرامتهم ، بما جعل حكم الفرنسيين فى نظره أقل ظلما وأقرب الى فكرة العدالة من حكم الاتراك والمماليك ، أم أن كلامه قصد به أن يكون شاهدا على قبر الامبراطورية التركية المملوكية معبرا عن فلسفة فى التاريخ مشـــابهة لفلسفة المؤرخ أوروسيوس مسطر نعى الامبراطورية الرومانية من قبل ، وهى فلسفة ترى فى انهيار الامبراطوريات نوعا من القصـــاص الآلهى الذى ترتبه العناية الالهية للامم والشعوب حين يشتد بغيها ويستشرى فسادها وتكثر آثامها ويضيع ايمانها فتبتعد كثيرا عن مدينة الله . وكلا الفرضين جائز لأن الصفحات الســـود التى خصصها الجبرتى فى الجزء الثـــانى لحكم مراد بك وابراهيم بك لاتترك مجالا للشك فى أن الجبرتى كان يكن لذلك العهد مقتا لا مزيد عليه ، فلا يذكر فيه أثرا واحدا لبـــارقة بيضاء أو لوميض خير حل بمصر والمصريين ، كمـــا ان نظرية القصاص الآلهى على فساد الامم جزء لايتجزأ من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل تفكير ديني أصيل ، وهو المرادف الروحي لما نسميه اليوم الحتمية التاريخية

واذا اردنا ان نعرف مدى تأثر الجبرتي بالفكر السياسي والاجتماعي الذي دخل مصر أو نشأ منها نتيجة للحملة الفرنسية فيمكننا استقاء ذلك من جملة امور في كتاباته ، واهمها موقفه من الفرنسيين عامة ومن التنظيمات والقوانين والعادات والعلوم والفنون والاصلاحات التي استحدثوها ، ثم موقفه من الفرنسيين كبلاء وطني بالقياس الى موقفه من الترك والمماليك كبلاء وطني . ويخيل الى اننا نستطيع أن نطمئن الى أقواله نظرا لما نلمسه فيه من الاجتهاد للموضوعية في أحكامه . ومنه أيضا نستطيع أن نستخلص موقف المصريين من كل هذه الاشياء ، في حدود تصور الجبرتي وعلمه ، وهو يمثل على الاقل وجها من وجوه هذه الصورة المعقدة

وبوجه عام نستطيع أن نحكم ان الجبرتي المفكر كان يجنح الى جملة معتقدات في مقدمتها :

(١) ان الحكم الفرنسي رغم شروره الكثيرة وضرورة رفضه كان في كثير من وجوهه أفضل للمصريين من الحكم المملوكي ومن الارهاب التركي وقد نص على هذا صراحة في مواضع قليلة ، ولكنه أوحى به ضمنا في المقارنات الضمنية الكثيرة التي ساقها في « عجائب الآثار »

(٢) أنه بوجه عام كان يبغض الثورات التي تحكمها الغوغاء والمهيجون المحترفون وتشيع فيها اعمال العنف وسفك الدماء والسلب والنهب حتى ولو كانت باسم الوطنية او الجهاد الديني

(٣) انه كما كان يقظا الى أعمال الارهاب والاستغلال التي قام بها الفرنسيون كان أيضا يقظا الى اجتهادهم في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اقامة العـدالة تشريعا وتنفيذا بطريقة لم يألفها المجتمع المصرى فى عهد المماليك ، ولعل هذا الجانب فى الجبرتى من أوضح جوانبه

(٤) من صفحات الجبرتى نستطيع ان نستخلص موقف الرأى العام ، أو شرائح كبيرة منه فى نظام الحكم الذى اقامه الفرنسيون ، ولاسيما التنظيمات السياسية والادارية والقضائية

(٥) من صفحات الجبرتى نستطيع ان نستخلص مااستحدثه الفرنسيون فى نظام الحكم بمصر ، ومدى السلطة التى كان يتمتع بها الوزراء والحكام المصريون ، وما هو صورى منها وما هو حقيقى ، ومدى مسئولية السلطات العسكرية الفرنسية امام المجالس النيابية المصرية التى انشأوها

اما بالنسبة لرأى الجبرتى فى المفاضلة بين الطبقات الحاكمة فى البلاد ، فهو يذكر ان الكشاف او السناجق أى حكام الاقاليم الذين انتقلوا من خدمة المماليك الى خدمة الفرنسيين كانوا أشد ظلما من سادتهم الجدد فبعد ثورة طنطا والمحلة الكبرى وفرض الغرامات على أهلها يحدثنا الجبرتى عن « التعنت عليهم وتسلط طوائف الكشوفية التابعين لهم الذين هم اقبح فى الظلم من الفرنسيس ، بل ومن العرب فانهم معظم البلاء ايضا . فانهم هم الذين يعرفون دسائس أهل البلاد ويشيعون أحوالهم ويتجسسون على عوراتهم ويغرون بهم » . (٣/١١٢) . ويذكر الجبرتى انه بعد اخماد ثورة القاهرة الثانية فر كثير من القاهريين الى القرى فقطع العرب عليهم الطريق وجردوهم من كل شىء حتى من ثيابهم ، فاضطر اكثرهم الى العودة الى القاهرة ، وفى هذا يقول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجبرتى : « واذا اراد الانسان ان يفر الى ابعد مكان وينجو بنفسه ويرضى بغير ابناء جنسه لا يجد طريقا للذهاب وخصوصا من الملاعين الاعراب الذين هم اقبح الاجناس وأعظم بلاء محيط بالناس وبالجملة فالامرعظيم والخطب جسيم ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم » . (٣/١١٠-١١١) فأعراب مصر كانوا فى أيام الجبرتى كما كانوا فى أيام فولنى ، جماعات مسلحة لا عمل لها الا النهب والسلب تعيش بغير رابط يربطهابالحركاتالوطنية التى كانت تجتاح مدن مصر وريفها

اما الوجه الاخر من الصورة ، وهو سلوك الفرنسيين السياسى والادارى فالجبرتى ينص بوضوح على انه كان ذا طابعين : طابع الارهاب الفظيع والتنكيل كلما شبت ثورة او اضطراب ، وطابع العدالة وسيادة القانون ،وهذا يسود فى فترات الاستقرار السياسى . امثلة هذا كثيرة الى درجة تلفت النظر وتوحى بأن الجبرتى انما كان يتوخى أن يعقد مقارنات ضمنية بين هذا الأسلوب فى الحكم وبين ما الفه المصريون تحت الحكم التركى المملوكى من حكم القوة الغاشمة السافرة التى لم تتسرب اليها فكرة القانون

ومن الامثلة التى لفتت نظر الجبرتى ان الفرنسيين لم يعملوا بنظام السخرة الذى كان شائعا فى العهد التركى المملوكى . ففى قيامهم باقامة منشآتهم يذكر الجبرتى نموذجا لذلك ، وهو بناء الطريق الكبير المحفوف بالاشجار « بحيث صارت طريقا ممتدة من الازبكية الى جهة قبة النصر المعروفة بقبة العرب جهة العادلية على خط مستقيم من الجهتين وقيدوا بذلك انفارا منهم يتعهدون تلك الطريق ويصلحون ما يخرج منها عن قالب الاعتدال بكثرة الدوس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحوافر الخيول والبغال والحمير وفعلوا كل هذا الشغل الكبير والفعل العظيم فى أقرب زمن ولم يسخروا أحدا فى العمل بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ويصرفونهم بعد الظهر ويستعينون فى الاشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة فى العمل وقلة الكفاية » .. كاستعمال العربات ذات العجل لنقل التراب بدلا من النقل اليدوى البحت فى الغلقان والقصاع الخ

ومن الامثلة التى يسوقها الجبرتى على توخى الفرنسيين احترام القانون ما ذكره من اعدام بعض جنودهم بسبب قيامهم بأعمال السطو ، او بتعبير الجبرتى : « استهل شهر شعبان ١٢١٣ هـ (١٧٩٨) بيوم الثلاثاء فيه قتلوا ثلاثة انفار من الفرنسيس وبندقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قيل انهم من المتسلقين على الدور » ـ (٣٩/٣) ومنها أيضا ماذكره ، وهو من نص بيان الديوان أو مجلس الوزراء الوارد فى الجبرتى ، تنويهـا بعقاب بونابرت للخارجين عن القانون حتى ولو كانوا من جنسه أو من ملته : «وقد اقتص من عسكره الذين اساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهرى وقتل منهم اثنين بقراميدان وانزل طائفة منهم عن مقامهم العالى الى أدنى مقام لان الخيانة ليست من عادة الفرنسيس خصوصا مع النساء الارامل فان ذلك قبيح عندهم لايفعله الا كل خسيس ووضع القبض بالقلعة على رجل نصرانى مكاس لانه بلغه انه زاد المظالم فى الجمرك بمصر القديمة على الناس ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمنع غيره من الظلم» (٤٢/٣) ومثله ايضا قول الجبرتى ان الفرنسيين عاقبوا بعض جواسيسهم لنقلهم أخبارا غير صحيحة : « (فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يوم الثلاثاء) سابعه انتدب للنميمة ثلاث من النصارى الشوام وعرفوهم ان المسلمين قاصدون الوثوب على الفرنسيس فى يوم الخميس تاسعه فارسل قائمقام خلف المهدى والاغا فاحضرهما وذكر لهما تلك فقالا له هذا كذب لا أصل له وانما هى نميمة من النصارى الشوام فقبضوا عليهم وسجنوهم بالقلعة حتى مضى يوم الخميس فلم يظهر صحة ما نقلوه فابقاهم فى الاعتقال » (٣/٤٥) او قوله : « ونبهوا ايضا بالمناداة فى اول رمضان بان نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين اولا ولا يتجاهرون بالاكل والشرب فى الاسواق ولا يشربون الدخان ولاشيئا من ذلك بمرأى منهم كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية» (٣/٤٥) والجبرتى اليقظ الى مغزى هذا السلوك السياسى يطنب فى وصف دوافعه الحقيقية ، وهى تظاهر الفرنسيين باحترام شعور المصريين دينيا كان او اجتماعيا كسبا لودهم وتقربا الى نفوسهم حتى يسلس قيادهم سياسيا. ولكن هذا لا يمنع ان الفرنسيين نقلوا مع ما نقلوا معهم الى مصر فكرة مساواة الناس امام القانون : ومن امثلة ذلك القانون الذى اصدروه، وهو انه « تحتم ويلزم صاحب كل خمارة او وكالة او بيت الذى يدخل فى محله ضيف أو مسافر او قادم من بلدة او اقليم ان يعرف عنه حالا حاكم البلد ولا يتاخر عن الاخبار الا مدة اربعة وعشرين ساعة يعرفه عن مكانه الذى قدم منه وعن سبب قدومه وعن مدة سفره ومن اى طائفة او ضيفا او تاجرا أو زائرا او غريبا مخاصما لابد لصاحب المكان من ايضاح البيان والحذر ثم الحذر من التلبيس والخيانة واذا لم يقع تعريف عن كامل ما ذكر فى شان القادم بعد الاربعة وعشرين ساعة باظهار اسمه وبلده وسبب قدومه يكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صاحب المكان متعديا ومذنبا وخائنا وموالسا مع المماليك. ونخبركم معاشر الرعايا وارباب الخمامير والوكائل ان تكونوا ملزومين بغرامة عشرين ريالا فرانسه فى المرة الاولى واما فى المرة الثانية فان الغرامة تضاعف ثلاث مرات . ونخبركم ان الامر بهذه الاحكام مشتركة بينكم وبين الفرنسيين الفاتحين للخمامير والبيوت والوكائل والسلام » (٣/٥٢ ــ ٥٣)

ويلاحظ ان كثيرا من القوانين التى أصدرها الفرنسيون فى مصر لم تكن مجرد قوانين طوارىء ، بل كانت قوانين معمولا بها فى فرنسا ذاتها ، ومنها هذا القانون الخاص بتسجيل نزلاء الفنادق والبنسيونات والاخطار عنهم ، ومنها قوانين الكارنتينة (٣/٥٢) وقوانين الشهر العقارى وتسجيل المواليد والوفيات وعقود الزواج (٣/١٤٣) ، ودفن الموتى خارج المدينة بدلا من الحيشان او الخرابات بداخل المدينة (٣/٢٠) ومنها قوانين اقتضتها الحضارة الحديثة ، كاضاءة المصابيح امام البيوت والدكاكين ، وكنس الشوارع وتبخير المنازل وتهوية المفروشات والابلاغ عن المرضى الخ .. واهم من كل هذا مبدأ «نشر» القوانين والاحكام كشرط لنفاذها باستعمال الملصقات فى الميادين وعلى رؤوس الشوارع والحوارى ، لعدم وجود « جريدة رسمية » وقتئذ وكبديل لنظام المنادى الذى لم تكن العصور الوسطى تعرف سواه فقارىء الجبرتى يرى بكل وضوح ان عملية النشر هذه لم تكن قاصرة على البيانات او الانذارات السياسية أو العسكرية ، بل كانت تشمل ايضا ، وبصفة أساسية ، القوانين واللوائح والاحكام سواء أكانت صادرة من السلطات الفرنسية مباشرة ام من اجهزة الحكم المصرية كمجلس الوزراء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(الديوان الخصوصى) او البرلمان (الديوان العمومى)

وأهم من كل هذا الوقفة الطويلة التى وقفها الجبرتى أمام محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر واظهر فيها دهشته واعجابه من الطريقة التى يجرى بها الفرنسيون محاكماتهم . وقد أورد الجبرتى كافة وثائق القضية بنصها : « وقد كنت اعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تزاكيبها لقصورهم فى اللغة ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه الى الاطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم رجل أفاقى أهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من اخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم ساري عسكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحاكمة واحضر القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم احضروا من اخبرهم وسألوهم على انفراد ومجتمعين ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم واطلقوا مصطفى أفندى البرصلى الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من افعال أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام ويزعمون انهم مجاهدون وقتلهم الانفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية » (١١٧/٣)

وأهم ما لفت نظر الجبرتى فى محاكمة سليمان الحلبى هو احاطة المحاكمة بكافة ضمانات العدالة ، واكتشافه أن الاجراءات الجنائية لها قوانين تنظمها وقد اورد النص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخاص بتشكيل محكمة عسكرية كل أعضائها من الجنرالات للنظر فى هذه القضية وتعيين مدع عام ومحام للمتهمين يسميه الجبرتى « الوكيل » (وكيل الجمهور)

كما أورد تقرير الطبيب الشرعى (الباش حكيم) والجراح (الجرايحى) عن اصابات كليبر وسبب وفاته ، وشهادة الشهود وكل ما ورد بملف القضية من استجوابات فى محضر التحقيق (س و ج) للفاعل الاصلى ولشركائه وكل ما ورد على لسانهم فى التحقيق فرادى وعند اجراء « المواجهة » واجراء توقيع « المتهمين » كل على اقواله فى التحقيق ، ومداولة القضاة ، والنطق بالحكم ، وتنفيذ الحكم وطريقته ، وأسباب تبرئة مصطفى افندى البورصلى كل هذا مع تدوين لكافة ما اشتمله ملف القضية ونشره فى خمسمائة نسخة باللغات الثلاث الفرنسية والعربية والتركية

ومن الامور الهامة التى اهتم الجبرتى بابرازها « علنية المحاكمة » : ومنها ايضا انه بعد قراءة قرار الاتهام « أمر سارى عسكر رينيه بحضور المتهمين المذكورين قدام القضاة وهم من غير قيد ولا رباط بحضور وكيلهم والابواب مفتحة قدام كامل الموجودين » (٣/١٣٢) لمناقشة المتهمين: ومما ابرزه الجبرتى ان استجواب سليمان الحلبى ظل يأخذ الطريق القانونى رغم اصراره على الانكار فلما لم تجد معه الوسائل القانونية جرى ضربه « على عادة اهل البلاد » ليعترف فاعترف . وواضح من السياق أن العرف فى مصر ايام الترك المماليك كان يقوم على تعذيب المتهمين لاستخلاص الاعترافات منهم

واهتمام كثير من الناس بالاطلاع على وثائق محاكمة سليمان الحلبى ، ذلك الاهتمام الذى دعا الجبرتى كما ذكر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى اثبات نصها فى « عجائب الاثار » يدل على ان الجبرتى لم يكن وحده فى العجب والاعجاب بنظام القضاء الجديد الذى لم يألفه المصريون ، بل كان هناك راى عام قد بدا يتكون فى أيامه ، بتأثير هذا الاحتكاك بأجهزة الدولة الحديثة التى دخلت مصر مع الحملة الفرنسية ، راى عام يستنكر اعدام الناس بلا محاكمة ولو كانوا من الاعداء السياسيين ، ويندد كما ندد الجبرتى بما يسميه « أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام ويزعمون انهم مجاهدون وقتلهم الانفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية مما سيتلى عليك بعضه بعد » . وأفعال الاوباش هذه ـ كانت اعمال الانتقام الفوضائية التى نفذها الترك والمماليك فى آلاف من المصريين بعد خروج الفرنسيين بشبهة التعاون معهم دون محاكمة من كل ما فصله الجبرتى فى « عجائب الاثار »

ولا يقل أهمية عن محاكمة سليمان الحلبى موقف بونابرت من تعيين قاضى مصر بعد انحياز القاضى الى معسكر الاتراك والمماليك . وكان منصب « قاضى العسكر » هذا اكبر سلطة قضائية فى البلاد وكان قبل بونابرت من تعيينات سلطان تركيا ، فولى بونابرت ابنه ملا زاده مكانه مؤقتا ثم عزله وقبض عليه بسبب تأزم الموقف بينه وبين الترك والمماليك فى حملته على سوريا . وكتب بونابرت الى أعضاء الديوان بهذا العزل « وانه وجه اليكم ان تقترعوا وتختاروا شيخا من العلماء يكون من أهل مصر ومولودا بها يتولى القضاء ويقضى بالاحكام الشرعية كما كانت الملوك المصرية يولون القضاء برأى العلماء للعلماء » (٧٢/٣)

ويلاحظ من هذا اصرار بونابرت على تمصير وظيفة قاضى القضاة من ناحية وعلى أن يكون شغل الوظيفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالانتخاب من كبار العلماء . وقد حاول اعضاء الديوان أن يتوسطوا للافراج عن ابن القاضى المعزول ولرده الى منصبه بحجة انه « انسان غريب ومن أولاد الناس الصدور وأن كان والده وافق كتخدا الباشا فى فعله فولده مقيم فى أمانكم والمرجو انطلاقه وعوده الى مكانه » . كذلك توسط له الشيخ السادات ، ولكن بونابرت أصر على موقفه من عزل ملا زاده واكتفى بالافراج عنه وانتخب العلماء المصريون الشيخ أحمد العريشى تنفيذا لامر بونابرت وحاولوا من جديد اقناع بونابرت شخصيا بذلك فلم يتزحزح عن موقفه ، وكتب بونابرت الى الديوان الرسالة التالية ونشرت على الناس فى الملصقات كالمعتاد

« الى محفل الديوان من حضرة ساري عسكر الكبير بونابرتة أمير الجيوش الفرنساوية محب أهل الملة المحمدية خطابا الى السادات العلماء انه وصل الينا مكتوبكم من شأن القاضى نخبركم أن القاضى لم أعزله وانما هو هرب من اقليم مصر وترك أهله وأولاده وخان صحبتنا من المعروف والاحسان الذى فعلناه معه وكنت استحسنت أن ابنه يكون عوضا عنه فى محل الحكم فى مدة غيبته ويحكم بدله ولم يكن ابنه قاضيا متوليا للاحكام على الدوام لانه صغير السن ليس هو اهلا للقضاء فقلتم ان محل حكم الشريعة خال الان من قاض شرعى يحكم بالشريعة واعلموا انى لا أحب مصر خالية من حاكم شرعى يحكم بين المؤمنين فاستحسنت أن يجتمع علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضيا شرعيا من علماء مصر وعقلائهم لاجل موافقة القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين وكذلك مرادى أن حضرة الشيخ العريشى الذى اخترتموه جميعا أن يكون لابسا من عندى وجالسا فى المحكمة وهكذا كان فعل الخلفاء فى العصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأول باختيار جميع المؤمنين .. وانتم يا أهل الديوان تهدون الناس الى الصواب والنور من جنابكم لاهل العقول وعرفوا أهل مصر انه انقضت وفرغت دولة العثملى من اقاليم مصر وبطلت أحكامها منها واخبروهم ان حكم العثملى أشد تعبا من حكم الملوك واكثر ظلما والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية وأهلية للاحكام الشرعية يصلحون للقضاء اكثر من غيرهم فى سائر الاقاليم .وانتم يا أهل الديوان عرفونى عن المنافقين المخالفين اخرج من حقهم لان الله تعالى أعطانى القوة العظيمة لاجل ما أعاقبهم فان سيفنا طويل ليس فيه ضعف ومرادى أن تعرفوا أهل مصر ان قصدى بكل قلبى حصول الخير والسعادة لهم مثل ما هو بحر النيل أفضل الانهار واسعدها كذلك أهل مصر يكونون أسعد الخلائق جميعا باذن رب العالمين والسلام » (٣/٧٣)

ورغم لغة الترغيب والترهيب التى استعملها بونابرت، نستطيع أن نجد مبدأين جديدين استقرا فى النظام القضائى المصرى فى عهد الحملة الفرنسية أولهما تمصير أكبر منصب قضائى فى البلاد وأعلى سلطة مدنية وروحية فيها وثانيهما مبدأ انتخاب رئيس السلطة القضائية بدلا من تعيينه ، وهو منصب شبيه بمنصب مفتى الديار المصرية ، ولكن بسلطات كاملة على كل ما يتصل بشئون الشريعة والقضاء فى زمن كانت كل القوانين فيه مستمدة من أحكام الشريعة . وقد أشار بونابرت بقوله « وهكذا كان فعل الخلفاء فى العصر الاول باختيار جميع المؤمنين » مبدأ خطيرا فى أصول الحكم لم يكن المصريون يجترئون على التفكير فيه ، أو على الاقل على المجاهرة به ، وهو أن نظام الحكم فى الاسلام كان نظاما جمهوريا يقوم على الانتخاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما قول بونابرت أنه يرى أن يكون قاضي القضاة « لابسا من عنده » فهو يقصد أنه لا يكون « لابسا » من عند الباب العالى . و « اللبس » هو الرمز لقرار تقليد السلطة الذى يسمى فى العرف الدستورى الاوروبى Investiture ، وهى كلمة فى اشتقاقها معنى اللبس كما فى العربيـــة ، وصورته المادية فى طقوس تقليد السلطة نجدها فى الجبرتى حين يقول عن الشيخ العريشى « فلما اصبح يوم الجمعة عمـــلوا جمعيـــة (يقصـــد اجتمـــاعا) فى منزل دوجا قائمقام وركبوا صحبته الى بيت سارى عسكر (يقصـــد بونابرت) ومعهم الشـــيخ احمـــد العريشى فالبســـه فروة مثمنة وركبوا جميعا الى المحكمـــة الكبـــيرة بين القصرين » (٣/٧٣) . وقـــد ذكر الجبرتى لبـــونابرت سابقة أخرى فى « تلبيس » زعماء المصريين ، أنه بعـــد انتخاب الشيخ الشرقاوى رئيسا للديوان (أى رئيســـا لمجلس الوزراء) ألبسه بونابرت الطيلسان المثلث الالوان ، فما كان من الشيخ الشرقاوى الا أن خلعه وقذف به على الارض متأففا . واصرار بونابرت على البـــاس الرؤساء المصريين هو بمثابة توكيد لوضعه بوصفه السلطة العليا فى البلاد بدلا من سلطان تركيا الذى كان أيضـــا خليفة المسلمين ، وقبول اللبس من بونابرت يتضمن اعترافا بأنه صاحب السلطة العليا لا سلطان تركيا . ولاشك أن الزعماء المصريين كانوا يدركون مغزى هذه الرموز والا لما أحسوا بكل هذا الحرج الذى وصفه الجبرتى حين فرض عليهم لبس الكوكارد ، رمز الثورة الفرنسية (١)

---

(١) « (وفيه) طلب سارى عســـكر بونابارته المشايخ فلما اســـتقروا عنده نهض بونابارته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اما موقف الجبرتي من الثورة وأعمال العنف فواضح من وصفه لثورتي القاهرة ، ولمختلف الفتن التي نشبت بمصر ابان الحكم الفرنسي . فهو دائما يقرن قيام الثورات بانحرافها عن أهدافها الاصلية وتحولها الى السلب والنهب وسفك دماء الابرياء . ففي ثورة القاهرة الاولى يقول الجبرتي « وخرجت العامة عن الحد وبالغوا في القضية بالعكس والطرد وامتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى

ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلي فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوي فرمى به الى الارض واستعفى وتغير لونه واحتد طبعه فقال الترجمان يامشايخ انتم صرتم احبابا لساري عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر وصار لكم منزلة في قلوبهم فقالوا له لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين فاغتاظ لذلك وتكلم بلسانه وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوي أنه لايصلح للرياسة ونحو ذلك فلاطفه بقية الجماعة واستعفوه من ذلك فقال ان لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار (يقصد الكوكارد) في صدوركم وهي العلامة التي يقال لها الوردة (يقصد الروزيت) فقالوا امهلونا حتى نتروى في ذلك واتفقوا على اثنى عشر يوما (وفي ذلك الوقت حضر الشيخ السادات باستدعاء فصادفهم منصرفين فلما استقر به الجلوس بش له وضاحكه ساري عسكر ولاطفه في القول الذي يعربه الترجمان وأهدى له خاتم الماس وكلفه الحضور في الغد عنده واحضر له جوكار اوثقه بفراجته فسكت وسايره وقام وانصرف فلما خرج من عنده رفعه على أن ذلك لايخل بالدين (وفي ذلك اليوم) نادى جماعة القلقات على الناس بوضع العلامات المذكورة المعروفة بالوردة وهي اشارة الطاعة والمحبة فأنف غالب الناس من وضعها وبعضهم رأى أن ذلك لايخل بالدين اذ هو مكره وربما ترتب على عدم الامتثال الضرر فوضعها ثم في عصر ذلك اليوم نادوا بابطالها من العامة والزموا بعض الاعيان ومن يريد الدخول عندهم لحاجة من الحاجات بوضعها فكانوا يضعونها اذا حضروا عندهم ويرفعونها اذا انفصلوا عنهم وذلك أيام قليلة وحصل مايأتي ذكره فتركت » . (١٧/٣)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشوام والاروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام وأخذوا الودائع والامانات وسبوا النساء والبنات» (٣/٢٥) وأسهب الجبرتى فى وصف دور الزعر والحرافيش فى اشاعة الفوضى

ولكن ما حدث فى ثورة القاهرة الاولى لا يقاس فى شىء الى ما حدث فى ثورة القاهرة الثانية ، لان ثورة القاهرة الاولى كانت فيما يبدو ثورة وطنية خالصة قامت احتجاجا على نظام الضرائب ورسوم التسجيل الذى وضعه الفرنسيون وكان زمام الموقف فيها الى حد كبير فى يد المصريين وزعمائهم كالشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ اسماعيل البراوى فلا تسمع فيها عن أى أذى نزل بالاقباط . وانما اقتصر اعتداء الغوغاء على « نصارى الشوام والاروام »

والجبرتى هنا مخطىء لان الكوكارد هى الوان الثورة الفرنسية فى ثلاث دوائر احداها داخل الاخرى ، أما الروزيت أو الوردة فهى نيشان اللجيون دونير والكوكارد قد تكون من رموز الولاء لمبادىء الثورة الفرنسية ولكنها ليست من رموز السلطة . أما الطيلسان فهو من رموز السلطة ، وهو المقابل لبدلة التشريفة التى يلبسها الوزراء فى النظام العثمانى عند زيارة السلطان أو نائبه . وخلعها عليهم أو الباسهم اياها فيه معنى أن السلطان هو مصدر سلطتهم ، ومصدر قرار تعيينهم . واعداد بونابرت الطيلسانات لاعضاء الديوان يؤيد ماذهبت اليه من أن قصده أن يكون الديوان مجلس وزراء بالمعنى الكامل. والتاريخ يذكر ان بونابرت نفسه مر بتجربة مشابهة وتصرف كما تصرف الشيخ الشرقاوى ، وذلك فى حفل تتويجه « امبراطوراً » باسم « نابوليون الاول » فى كاتدرائية نوتردام بباريس ، فقد رفض نابوليون ان يلبسه البابا تاج الامبراطورية فأخذ التاج من يده والبسه لنفسه رمزاً لان السلطة الزمنية غير مستمدة من السلطة الدينية كما كان الحال مع أباطرة العصور الوسطى وملوك فرنسا حتى الثورة الفرنسية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذين تحزبوا للفرنسيين ولا سيما بعد ما نزل بهم من تنكيل . أما ثورة القاهرة الثانية فقد كان واضحا منذ البداية حتى النهاية أن قيادتها كانت بيد الاتراك والمماليك المعسكرين بمشارف القاهرة والمتسللين اليها وبيد عملائهم من المغاربة والغرباء ، ولذا انحرفت عن هدفها الوطني وتحولت الى حرب دينية صريحة جعلت من الاقباط هدفا لها ، وكانت من الاسباب المباشرة لتكتل الاقباط وانشاء الفيلق القبطي بقيادة المعلم الجنرال يعقوب الذى لم ينشأ الا فى ٥ محرم ١٢١٥ هـ (١٨٠٠) اى قبل مقتل كليبر بأسبوعين

وقد اثبت التحقيق مع سليمان الحلبى وشركائه عبد القادر الغزى ومحمد الغزى وعبد الله الغزى واحمد الوالى أن مقتل كليبر كان بتدبير الاتراك وتمويلهم . اما تكوين الفيلق القبطى فقد قال فيه الجبرتى: « (وفيه) طلبوا عسكرا من القبط فجمعوا منهم طائفة وزيوهم بزيهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك وارسلوا الى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الالفين واحضروهم الى مصر واضافوهم الى العسكر » (٣/١١٥) وفى وصف ثورة القاهرة الثانية يقول الجبرتى:

« وخرج السيد عمر أفندى نقيب الاشراف والسيد أحمد المحروقى وانضم اليهما اتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر وكذلك حسين اغاشمن أخو ايوب بيك الصغير وتبعهم كثير من عامة أهل البلد وتجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل معه السلاح وكذلك تحزب كثير من طوائف العامة والاوباش والحشرات .. الى أن دخل وقت العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلدة ولهم صياح وجلبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الشرح المتقدم وخلفهم ابراهيم بيك ثم أخرى وخلفهم عثمان كتخدا الدولة ثم نصوح باشا (يقصد القائد التركى) وعدة وافرة من عساكرهم وصحبتهم السيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقى وحسن بيك الجداوى وعثمان بك المرادى وعثمان بيك الاشقر وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان أغا الخازندار وابراهيم بيك المعروف بالسنارى وصحبتهم مماليكهم واتباعهم فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصلوا الى وكالة ذى الفقار فقال نصوح باشا عند ذلك للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم عندما سمعوا منه ذلك القول صاحوا وهاجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم فذهبت طائفة الى حارات النصارى وبيوتهم التى بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكى فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين لهم فتحزبت النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ماقدر عليه من العسكر الفرنساوى والاروام وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الاسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الأمر فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى تقاتل وترمي بالبندق والقرابين من طبقات الدور على المجتمعين بالازقة من العامة والعسكر ويحامون عن انفسهم والاخرون يرمون من أسفل ويكبسون الدور ويتسورون عليها » (٣/٩١-٩٢)

ووسط هذا الاضطراب الدموى وقنابل الفرنسيين انتاب الذعر بعض الاهالى الوادعين فأرادوا الخروج من القاهرة ليلا الى الريف طلبا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للامان ، فتجمهر عليهم أتراك خان الخليلى من «الالداشات» ومغاربة الفحامين والفورية وعساكر الانكشارية ومنعوهم من مغادرة العاصمة ، ونشروا فى القاهرة لونا من الارهاب الفظيع . واستمر القتال ليلا ونهارا ، « وكان كل من قبض على نصرانى أو يهودى أو فرنساوى أخذه وذهب به الى الجمالية حيث عثمان كتخدا ويأخذ عليه البقشيش فيحبس البعض حتى يظهر أمره ويقتل البعض ظلما وربما قتل العامة من قتلوه وأتوا برأسه لاجل البقشيش وكذلك كل من قطع رأسا من رؤوس الفرنساوية يذهب بها اما لنصوح باشا بالازبكية واما لعثمان كتخدا بالجمالية ويأخذ فى مقابلة ذلك الدرهم » (٣/٩٣) وسرعان ما امتدت الحرب الدينية الى بولاق « واستطالوا على من كان ساكنا ببولاق من نصارى القبط والشوام فأوقعوا بهم بعض النهب وربما قتل منهم أشخاص » (٣/٩٦) . وحاصروا زعماء الاقباط « وأما أكابر القبط مثل جرجس الجوهرى وفلتيوس وملطى فانهم طلبوا الامان من المتكلمين من المسلمين لكونهم انحصروا فى دورهم وهم فى وسطهم وخافوا على نهب دورهم اذا خرجوا فارين فأرسلوا اليهم الامان فحضروا وقابلوا الباشا والكتخدا والامراء وأعانوهم بالمال واللوازم وأما يعقوب فانه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الاولى فكان معظم حرب حسن بيك الجداوى معه هذا والمناداة فى كل وقت بالعربى والتركى على الناس بالجهاد والمحافظة على المتاريس » (٣/٩٦)

وفى وسط هذه الفوضى الشاملة برز أفاق مغربى وتزعم غوغاء القاهرة وسيطر على الجماهير حتى اصبح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلطة العليا للثورة او ملكا غير متوج فى القاهرة ، وافلت زمام الحركة الوطنية من أيدى زعماء الشعب الحقيقيين . وفيه يقول الجبرتى : « وحضر أيضا رجل مغربى يقال انه الذى كان يحارب الفرنسيين بجهة البحيرة سابقا والتف عليه طائفة من المغاربة البلدية وجماعة من الحجازية ممن كان قد صحبه الجيلانى الذى تقدم ذكره وفعل ذلك الرجل المغربى أمورا تنكر عليه لان غالب ما وقع من النهب وقتل من لا يجوز قتله يكون صدوره عنه فكان يتجسس على البيوت التى بها الفرنسيس والنصارى فيكبس عليهم ومعه جمع من العامة والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلى والثياب ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعا فيما على رأسها وشعرها من الذهب وتتبع الناس عورات بعضهم البعض وما دعتهم اليه حظوظ أنفسهم وحقدهم وضغائنهم » (٣/٩٤)

وهكذا تحولت ثورة القاهرة الثانية الى مسرح للمذابح الدينية ومرجل للضغائن الشخصية ، فاستبيح فيها كل شىء . ولم يسلم بعض زعماء البلاد كالسيد خليل البكرى فأهين أبلغ أهانة وساقه الفوغاء عارى الراس ذليلا فى الشوارع ، وضرب الانكشارية الشيخ الشرقاوى والشيخ السرسى وسبوهما بأقذع الالفاظ ورموا عمامتيهما ، لانهما كانا يتوسطان مع الفرنسيين لحقن الدماء ومعهما الشيخ المهدى والشيخ الفيومى وغيرهما . واصبح زعماء البلاد الحقيقيون المسلمون منهم قبل الاقباط، شبه أسرى فى أيدى المغربى وغوغائه ونصوح باشا القائد التركى وانكشاريته والبكوات المماليك وجيشهم . واضطروا على مضض منهم الى تمويل الفتنة ، فالزموا الشيخ السادات بكلفة الذى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنـد قناطر السبـاع وهم مصطفى بيك ومن معه من العساكر » (٣/٩٦) والزموا جرجس الجوهرى ان يمول بالمال واللوازم الباشا والكتخدا والمماليك . ويذكر الجبرتى نموذجا رائعا لتضامن المصريين فى هذا البلاء بمناسبة حديثه عن محنة السيد خليل البكرى فيقول : « واخذه سيدى أحمد بن محمود التاجر مع حريمـه الى داره واكرمهم وكساهم واقاموا عنـده حتى انقضت الحادثة وباشر السيداحمد المحروقى وباقى التجار ومساتير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب وكذلك جميع أهل مصر كل انسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه واعان بعضهم بعضا وفعلوا ما فى وسعهم وطاقتهم من المعونة » (٣/٩٤)

وقد سـاد الارهاب المدينة حتى أن زعمـاء البـلاد وعقلاءها كانوا يتهمون بالارتداد عن الدين وبالتآمر على الاسلام وبالارتشاء من الفرنسيين ، ومن هؤلاء الزعماء من ماشى الفوغاء والانكشارية لحظة خشية على حيـاته ، او كما جاء فى الصورة الرهيبة التى رسمها الجبرتى للموقف :

« فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليهم وسـبوهم وشـتموهم وضربوا الشرقاوى والسرسى ، ورموا عمائمهم واسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشـايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وانهم اخذوا دراهم من الفرنسيين وتكلم السفلة والفوغاء من امثـال هـذا الفضول وتشـدد فى ذلك الرجل المغربى الملتف عليه اخلاط العالم ونادى من عند نفسه الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر عنه ضرب عنقه وكان السادات ببيت الصاوى فتحير واحتال بأن خرج وأمامه شخص ينادى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بقوله الزموا المتاريس ليقى بذلك نفسه من العامة ووافق ذلك اغراض العامة لعدم ادراكهم لعواقب الامور فالتفوا عليه وتعضد كل بالاخر وان غرضه هو (يقصد المغربى) فى دوام الفتنة فان بها يتوصل لما يريده من النهب والسلب والتصور بصورة الامارة باجتماع الاوغاد عليه وتكفل الناس له بالمأكل والمشرب هو ومن انضم اليه واشتطاط من المآكل مع فقد الناس لها دون مايؤكل حتى انه كان اذا نزل جهة من جهات المدينة لاظهار انه يريد المعونة أو الحرس فيقدمون له بالطعام فيقول لا آكل الا الفراخ ويظهر انه صائم فيكلف أهل تلك الجهة انواع المشقات والتكلفات بتعنته فى هذه الشدة بطلب افحش المأكولات وماهو مفقود ثم هو مع ذلك لايغنى شيئا اذا دهم العدو تلك الجهة التى هو فيها فارقها وانتقل لغيرها وهكذا كان ديدنه وسبحه ثم هو ليس ممن له فى مصر مايخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال أو غير ذلك بل قيل لا ناقتى فيها ولاجملى فاذا قدر ماقدر تخلص مع حزبه الى بعض الجهات والتحق بالريف أو غيره وحينئذ يكون كآحاد الناس ويرجع لحالته الاولى وتبطل الهيئة الاجتماعية التى جعلها لجلب الدنيا فخا منصوبا ومخرق بها على سخاف العقول واخفاء الاحلام وهكذا الفتن تكثر فيها الدجاجلة ولو ان نيته ممحضة لخصوص الجهاد لكانت شواهد علانيته اظهر من نار على علم أو اقتحم كغيره ممن سمعنا من المخلصين فى الجهاد وفى بيع انفسهم فى مرضاة رب العباد لظا الهيجاء .. ولم يتعنت على الفقراء ولم يجعل همته فى السلب مصروفة وحال سلوكه عند الناس ليست معروفة .. وبالجملة فكان هذا الرجل سببا فى تهدم اغلب المنازل بالازبكية ومن جملة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مارميت به مصر من البلاء وكان مما ينادى به عليه حين أشيع أمر الصلح وتكلم به الاشياخ الصلح منقـــوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر ضرب عنقه وهذا منه افتيات وفضول ودخول فيما لايعنى حيث كان فى البلد مثـل الباشا والكتخدا والامراء المصرية فما قدر هذا الاهوج حتى ينقض صلحا أو يبرمه وأى شيء يكون هو حتى ينادى أو ينصب نفسه بدون أن ينصبه أحد لذلك لكنها الفتن يستنسر بها البغاث ســـيما عند هيجان العامة وثوران الرعاع والغوغاء اذ كان ذلك مما يوافق أغراضهم.» (٣/٩٩ – ١٠٠)

هذه هى الصورة الكاملة لثورة القاهرة الثانية كمـا رسمها الجبرتى وبعد اخمادها تلتها صور من التنكيل لاتقل عنها شناعة . وفى هذه الصورة نبحث عن المصريين وقادتهم من العلماء فلا نجدهم بل نجد اكثرهم قد وقع بين شقى الرحى ، بين الاستعمار التركى والاســتعمار الفرنسى محاولين انقاذ ما يمكن انقاذه وسنحاول هذه الزعازع فى هذه الصورة لانسمع عن المصريين كطلائع للثورة ولكن نسمع عن ذلك الافاق المغربى زعيم الرعاع بعصـــاباته المسلحة من المغاربة والحجازية ، ونســمع عن مغاربة الفحامين وطولون والفورية من عمـلاء الباب العالى ، ونسمع عن اتراك خان الخليلى ونسمع عن نصوح باشا القائد التركى وعن عثمـان كتخدا وعن الانكشارية وعن ابراهيم بك والبـكوات المماليك ولاســيما حسن بك الجداوى وحسين اغا شنن . أما السيد عمر مكرم نقيب الاشراف والسيد أحمد المحروقى كبير تجار القـاهرة فرغم وجودهما فى الصورة لا نحس من صفحات الجبرتى انهما كانا يلعبان دورا قياديا حاسما فى هذه الثورة التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تدفقت فيها الاموال التركية والمملوكية ، بل والانجليزية أيضا ، وسلمت قيادتها لاعوان الباب العالى ولاصدقائه ولعملائه فلم تجد سندا تستثير به الغوغاء والحرافيش الا اثارة النعرة الدينية وارهاب البسطاء للجهاد فى سبيل الدين واتهام الزعماء المصريين بالخيانة والارتشاء من الفرنسيين ، وماهؤلاء الزعماء الا أمثال الشيخ الشرقاوى الذى تحدى بونابرت وجها لوجه وألقى بطيلسانه المثلث الالوان على الارض ، والشيخ المهدى الذى كان بونابرت يقول عنه وعن زميله الشيخ الصاوى انهما ليسا (بونو) بلغة الجبرتى (٣/٧٧) وعامة أعضاء مجلس الوزراء الذين اعتقلوا واحدا واحدا فى فترات مختلفة بسبب مواقفهم الوطنية . ولو أن كل هذا التطرف والغلو كان لحساب مصر ومن أجل استقلالها لاختلف الامر ولبدا الرؤساء المصريون فى موقف الانهزاميين المهادنين حقا للاستعمار الفرنسى ، ولكنه كان لحساب الاتراك والمماليك وبقصد اعادة مصر الى حظيرة الامبراطورية العثمانية . والجبرتى الذى تابع أحداث ذلك العهد وما قبله وما بعده يوما بيوم وعرف رجالات مصر معرفة شخصية كان رغم محافظته من بعض النواحى من طليعة العلماء الذين يمثلون الازهر الجديد ، الازهر الثائر ، الازهر المتمرد على قيم العصور الوسطى ، الازهر الذى أنجب حسن العطار ثم رفاعة الطهطاوى ثم محمد عبده ، باختصار الازهر الذى أراد أن يواجه مسئوليات الدولة الحديثة بمنطق الحضارة الحديثة وبأدوات العلم الحديث . فشهادة الجبرتى فى « عجائب الآثار » اذن ينبغى أن تؤخذ بلا تحفظ على أنها تمثل وجهة نظر الطليعة الوطنية المثقفة فى البلاد . ولعل الخطاب التالى الذى أرسله الشيخ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السادات مع السيد أحمد المحروقى الى عثمان كتخدا خير معبر عن سخط المصريين وخيبة أمل زعمائهم ، حتى من تعاون منهم مع الاتراك والمماليك بقصد استخدامهم أعوانا يطردون بهم الفرنسيين ، نتيجة للفظائع التى ارتكبها الاتراك والمماليك والمغاربة باسم الجهاد الدينى ثم مبادرتهم الى الفرار حين سحق كليبر ثورة القاهرة ، وهذا الخطاب يوضح أن الاتراك والمماليك والمغاربة كانوا السبب فى انحراف ثورة القاهرة الوطنية

ويثبت أن شرهم لم يكتو به الاقباط وحدهم وانما اكتوى به المسلمون كذلك . قال الجبرتى :

« وقد كان لما حصل ماتقدم من نقض الصلح ودخول العثمانية وعساكرهم الى المدينة ووقع ماتقدم وكلفوا الناس الامور الغير اللائقة حضر السيد أحمد المحروقى الى الشيخ أبى الانوار السادات بجواب عن لسان عثمان كتخدا الدولة فكتب له الشيخ تذكرة وصورتها :

« حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير وما هى من الظالمين ببعيد

ظننت أنك عدتى أسطو بها
ويدى اذا اشتد الزمان وساعدى

فرميت منك بغير ما أملته
والمرء يشرق بالزلال البارد

« اما بعد لقد خنت عهدى وتركت مودة آل بيت جدى وأطعت الظلمة السفلة وامتثلت أمر المارقين الثقلة فأعنتهم على البغى والجور وسارعت فى تنجيز مرامهم الفاسد على الفور من الزامكم الكبير والصغير والغنى والفقير اطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات وبلغ فى النهب والفساد غاية الغايات فكان جهادهم فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أماكن الموبقات والملاهى حتى نزل بالمسلمين اعظم المصائب والدواهى فاستحكم الدمار والخراب ومنعت الاقوات وانقطعت الاسباب فبذلك كان عسكركم مخذولا وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا كيف لا وأكابركم اضمرت السوء للمرتزقة فى تضييق معايشهم وأخذ مرتباتهم واتلاف ما بأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم وقد اخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها ثم فررتم فرار الفيران من السنور وتركتم الضعفاء متوقعين اشنع الامور فواغوثاه واغوثاه اغثنا ياغياث المستغيثين واحكم بعدلك ياحاكم الحاكمين وانصرنا وانتصر لنا فاننا عبيدك الضعفاء المظلومين يا أرحم الراحمين » (٣/١٠٣)

هذا عن موقف الجبرتى من ثورة القاهرة الاولى وثورتها الثانية . واذا كان السيد عمر مكرم والسيد احمد المحروقى وكثير من المصريين قد تبعوا الجيش التركى وجيوش المماليك عند انسحابها من مصر بعد هزيمتها واخماد الثورة ، فان الزعماء المسئولين ، ومنهم الشيخ السادات ، ثبتوا فى القاهرة ليواجهوا مصير الثوار الفاشلين معبقية ابناء الشعب . ولقد كان القصاص فظيعا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ الجبرتى ونظام الحكم

ومن اهم المواضع التى ينبغى دراستها فى الجبرتى موقف الجبرتى وموقف الشعب المصرى من التنظيمات السياسية التى أدخلها بونابرت فى مصر ، ولا سيما الديوان العمومى المكون من ستين عضوا ، وهو أول مجلس نيابى عرفته مصر فى العصر الحديث ، والديوان الخصوصى المختار من بين أعضائه والمكون من أربعة عشر عضوا ، وهو أول مجلس وزراء عرفته مصر ، ثم طريقة العمل بهذه الدواوين واختصاصاتها ومدى مسئوليتها أمام الشعب وأمام القائد العام الفرنسى ووضعها « الدستورى » ان جاز هذا التعبير فى اطار الحكم الفرنسى . أما عن موقف الشعب المصرى من الحكم النيابى ، فقد بين الجبرتى فرح الشعب بعودة الديوان بعد تعطيله ، بما يدل على أنه برغم وجود رأى عام متطرف يرى فى هذه الواجهة من الحكم المصرى مجرد أدوات يمارس بها الفرنسيون السلطة المدنية فى البلاد ، فقد كان هناك أيضا رأى عام لايقلّ عنه تبلورا يؤمن بأن الحكم النيابى مجن يقى المصريين الكثير من بلايا الاستعمار الفرنسى ويحاول تقليم أظافره والحد من سلطته المطلقة . وصفحات الجبرتى تترى بأخبار المساعى الحميدة التى كان يقوم بها أعضاء الديوان فرادى ومجتمعين طوال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فترة الحملة الفرنسية للأفراج عن المعتقلين السياسيين بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية ، بما يدل على أنه كان الملاذ الطبيعي للشعب المصرى فى كل نازلة تنزل به . وفى الغالبية المطلقة من الحالات كانت وساطة أعضاء الديوان تكلل بالنجاح ، فينزل صارى عسكر أو قائمقامه على رغبة زعماء البلاد ويأمر بالافراج عن المعتقلين ، أو بالعفو الفردى أو بالعفو العام بعد الثورات أو الاضطرابات . كذلك تترى صحائف الجبرتى بأنباء الضغط الذى كان يباشره أعضاء الديوان على الحكم الفرنسى لالغاء المصادرات ، ولتخفيف الضرائب أو الغرامات ولتقسيطها . وقارىء الجبرتى يستطيع أن يرى بوضوح أن الامر لم يكن عملية املاء من جانب واحد ، وأنه حتى فى البيانات التى كان يصدرها الديوان لتهدئة الخواطر الثائرة ، كانت هناك أسس للحكم استخلصها الزعماء المصريون من بونابرت وخلفائه . ففى البيان الذى أصدره الديوان الى الشعب المصرى بتاريخ ٨ جمادى الثانية ١٢١٣ (١٧٩٨) لتهدئة الخواطر : « نصيحة من علماء الاسلام بمصر المحروسة نخبركم يا أهل المدائن والامصار من المؤمنين ويا سكان الارياف من العربان والفلاحين ... بأن حضرة صارى عسكر الكبير أمير الجيوش بونابارته اتفق معنا على أنه لاينازع أحدا فى دين الاسلام ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الاحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما احدثه الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم بابراهيم ومراد » (٣/٣١ ــ ٣٢) ، وهذا يدل على أن العلماء قبل اصدار هذا البيان قد اشترطوا العمل بجملة مبادىء أساسية للحكم واستخلصوا من بونابرت تعهدا بها ، وهى احترام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدين ، وعدم المساس بأحكام الشريعة واقامة العدل والغاء مظالم المماليك واقتصار واجبات المصريين ازاء الدولة على دفع الضرائب

ولمعرفة الاوضاع الدستورية فى تلك الفترة ينبغى تتبع (الملصقات) الكثيرة التى كانت أجهزة الحكم (تنشر) بها البيانات والمراسيم والقوانين والقرارات وعامة ما تنظم به العلاقة بين الحاكم والمحكوم . وبتأمل هذه الملصقات نجد أنها من ثلاثة انواع (١) ملصقات موجهة من السلطات الفرنسية الى الشعب المصرى مباشرة (٢) ملصقات موجهة من السلطات الفرنسية الى مجلس الوزراء (الديوان الخصوصى) او الى البرلمان (الديوان العمومى) (٣) ملصقات موجهة من مجلس الوزراء أو البرلمان الى الشعب المصرى . وبتحليل نصوص هذه الملصقات نخرج بنتيجتين على غاية قصوى من الاهمية : أولاهما أن هذه المجالس النيابية والتنفيذية المصرية كانت لها سلطة اصدار القوانين فيما لا يمس السياسة العليا ، وثانيهما ان بونابرت كان يعد نفسه (شكليا) مسئولا أمام (محفل الديوان) المصرى بمثل ماكان مسئولا فعليا امام حكومة الادارة أو المؤتمر الوطنى فى بلاده ، فكان يقدم التقارير للديوان اولا بأول عن اعماله وتحركاته وانتصاراته وانسحاباته العسكرية بتفصيل شديد ، بل لقد سمى فى تقرير مشهور له جيشه المحارب فى سوريا باسم (جيش مصر) . وتحدث عن انتصار هذا الجيش تحدثه عن انتصار الجيش المصرى . ولا شك أن مراعاة بونابرت أن يحافظ على هذه المسئولية الشكلية أمر يلفت النظر حقا : ويبدو من كلام الجبرتى ان بيانات السلطات الفرنسية الموجهة الى الشعب المصرى رأسا نفسها كانت تقسرا فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البرلمان قبل نشرها فى الملصقات ، ففى الجبرتى أنه :

« ولما اخذوا غزة أرسلوا طومارا بصورة الواقعة وبصموه نسخا وقرىء بالديوان والصقوا نسخه المطبوعة بالاسواق وصورته :

(بسم الله الرحمن الرحيم) ولا عدوان الا على الظالمين نخبر أهل مصر وأقاليمها أنه حضر فرمان مكتوب من غزة من حضرة الجنرال اسكندر برتييه خطابا الى حضرة سارى عسكر دوجا وكيل الجيوش بمصر يخبره فيه بأن العساكر الفرنساوية .. الخ » (٣-٤٧)

وفى ثانى يوم من السنة الهجرية ١٢١٤ (١٨٩٩) جاء خطاب :

« من بونابارته ساري عسكر امير الجيوش الفرنساوية الى محفل ديوان مصر نخبركم عن سفره من بر الشام الى مصر فانى بغاية العجلة بحضورى لطرفكم نسافر بعد ثلاثة ايام تمضى من تاريخه ونصل عندكم بعد خمسة عشر يوما وجائب معى جملة محابيس بكثرة وبيارق ومحقت سراية الجزار وسور عكا .. الخ »
(٣/٦٧ - ٦٨)

ومثل هذا :

« (وفى سابع عشرينه) لخص الفرنساوية طومارا قرى بالديوان وطبع منه عدة نسخ وألصقت بالاسواق على العادة .. وصورتها من محفل الديوان الكبير بمصر بسم الله الرحمن الرحيم ولا عدوان الا على الظالمين نخبر اهل مصر اجمعين انه حضر جواب من عكا من حضرة سارى عسكر الكبير خطابا الى حضرة سارى عسكرى الوكيل بثغر دمياط .. » الى آخر مافصله من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبهذا يكون قد استجد فى مصر تقليد دستوري أساسه ان يقدم القائد العام مباشرة او عن طريق نائبه تقاريرعن نتائج اعماله العسكرية الى « محفل الديوان » قبل نشرها على الناس . ومن العبث ان نظن ان هذه التقارير كانت تقدم سواء لمجرد «العلم» او «للتصديق» عليها ، فكلا الفرضين يقوم على التعسف ، وانما كانت تقدم كعرف دستورى شكلى يتضمن اعترافا شكليا بشخصية الديوان العمومى على أنه سلطة نيابية شرعية وانه حلقة وصل بين السلطة العسكرية والشعب المصرى . وفى كثير من الاحوال كانت هذه التقارير المقدمة الى البرلمان لا تنشر مباشرة ولكن تصدر فى صورة بيان يصدره (محفل الديوان الكبير) للشعب المصرى

أما اختصاص المجلس النيابى باصدار القوانين فواضح من الامثلة التى ساقها الجبرتى وهذا نموذج منها خاص بفرض عقوبة الاعدام فى احوال معينة منعا لانتشار مرض السفلس :

« من محفل الديوان العمومى الى جميع سكان مصر وبولاق ومصر القديمة اننا قد تأملنا وميزنا ان الواسطة الاقرب والايمن لتلطيف او لمنع الخطر الضرورى وهو تشويش الطاعون عدم المخالطة مع النساء المشهورات لانهن الواسطة الأولى للتشويش المذكور فلأجل ذلك حتمنا ورتبنا ومنعنا الى مدة ثلاثين يوما من تاريخه اعلاه لجميع الناس ان كان فرنساويا أو مسلما أو روميا او نصرانيا أو يهوديا من اى ملة كان كل من ادخل الى مصر او بولاق او مصر القديمة من النساء المشهورات ان كان فى بيوت العسكر او كل من كان داخل المدينة فيكون قصاصه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالموت كذلك من قبل النساء والبنات المشهورات بالعسكر أن دخلن من أنفسهن أيضا يقاصصن بالموت » (٣/٥٧)

وهذه الوثيقة ذات أهمية عظمى لانها تثبت ان ولاية البرلمان المصرى فيما يتصل بسن القوانين المدنية كانت نافذة لا على الرعايا المصريين فحسب ، ولكن على الاجانب أيضا بما فيهم جنود جيش الاحتلال . ونظيرها القانون الخاص بتسجيل نزلاء الفنادق وابلاغ الاقسام عنهم . ففيه نص يدل على سريانة على الفرنسيين مثل المصريين.

وهى ونظائرها تثبت ان سلطة اصدار القوانين فيما لايمس السياسة العليا كانت من اختصاص الديوان العمومى ، أو محفل الديوان الكبير كما كان يسمى احيانا او(الديوان الديمومى) كما سمى فى مرسوم أنشائه (٣/٣٧) ويفسره الرافعى بالديوان الدائم ولكن لا يبعد ان تكون تسميته الاصلية من (ديموس) أى (الشعب) بمعنى:ديوان الشعب. والمعنى محفوظ فى كلمة العمومى ، كما فى اصطلاح (مجلس العموم) البريطانى

ومن الممكن بناء عليه للمشتغلين بتاريخ القانون والفقه الدستورى ان يجمعوا من صفحات الجبرتى مجموعة التشريعات التى أصدرها البرلمان المصرى الاول . كما أن هناك عدة نماذج من قرارات مجلس الوزراء (الديوان الخصوصى) يمكن ايضا جمعها من الجبرتى

ومن التقارير المؤكدة للصفة النيابية للديوان العمومى التقرير الوارد من السلطات الفرنسية الى هذا الديوان بشأن الاعمال الحربية فى ابو قير ، حيث يقول الجبرتى :

« وصورتها لا اله الا الله صلى الله عليه وسلم نخبركم محفل الديوان بمصر المنتخب من أحسن الناس واكملهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالعقل والتدبير عليكم سلام الله تعالى ورحمته وبركاته بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الاشواق الزائدة اليكم نخبركم يا أهل الديوان المكرمين العظام لهذا المكتوب اننا وضعنا جماعات من عسكرنا بجبل الطرانة وبعد ذلك سرنا الى اقليم البحيرة الخ .. » (٣/٧٥-٧٦)

وهذا النص يؤكد ايضا مسئولية الجيش أمام البرلمان من ناحية الشكل والتنظيم الدستورى ، وهو وضع مشابه للاوضاع فى فرنسا ذاتها بعد الثورة الفرنسية. وقد كان آخر عمل عمله بونابرت بمصر هو ابلاغ المصريين بعودته الى فرنسا وبيان أسباب هذه العودة واصدار مرسوم بتعيين كليبر قائدا عاما مكانه . وقد قرأ الجنرال دوجا هذه الوثيقة على اعضاء الديوان أو (الرؤساء المصرية) كما يسميهم الجبرتى (٣/٧٩)

كل هذه التنظيمات السياسية والتقاليد الدستورية التى استجدت فى مصر خلال الحملة الفرنسية ، وفصل الجبرتى ذكرها تفصيلا وافيا ، بالاضافة الى النظريات الاساسية الواردة فى بيانات بونابرت الاولى الداعية ضد فلسفة الحق الالهى والنظام الاقطاعى والامتيازات الطبقية الوراثية والمنادية بالمساواة امام القانون وبتكافؤ الفرص وبكافة حقوق الانسان وبتمجيد القومية المصرية ، كانت بغير شك الدعائم الاولى للفكر السياسى والاجتماعى الجديد فى مصر الحديثة . واذا كان من العسير العثور فى الجبرتى على أفكار سياسية واجتماعية بالمعنى المنظم المبلور فى فلسفة نظرية فان تدوينه لكل هذه الاحداث فى موضوعية كافية قد جعل من مدونته العظيمة مصدرا هاما من مصادر تكون الفكر السياسى والاجتماعى فى مصر وما طرأ عليه من تأثيرات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثورية خطيرة ما كانت لتطرأ عليه الا نتيجـــة لاحتكاك المصريين بنظم الحكم وأساليبه ونظرياته الواردة عليهم من الغرب مع الحملة الفرنسية وما تلاها من اتصال مستمر بعد قرون من العزلة الكاملة داخل أسوار الامبراطورية العثمانيـــة

هذه اذن كانت بدايات الديمقراطية المصرية ، فـكرة وتنظيما ، بل وبدايات الحكم الجمهورى ، واذا كان من حقنا ان نستنتج شيئا من شروط (الرؤساء المصرية) لقبول حـــكم بونابرت والحـــكم تحت بونابرت ، فان اشتراطهم عدم المساس بأحكام الشريعة الاسلامية كشرط للقبول يوحى بأن بونابرت كان يحاول جادا ادخال القانون المدنى والجنائى الوضعى فى مصر ليقوم مقام الشريعة ثم عدل عن ذلك .. والجبرتى يذكر لنا أن بونابرت عرض للمناقشة فى اول جمعية تأسيسية انشأها موضوع نظام الملكية ونظام التوريث وعرض وجهـــة نظر القـــانون الفرنسى فيهما فرفضه اعضاء الديوان بالاجماع ، بمـا فيهم الاقباط ونصـــارى الشوام الذين قالوا : المسلمون يقسمون لنا . ومعنى هذا ان المصريين قبلوا من فلسفة الحكم الجديد النظام النيابى ، ولكنهم فى هذه المرحـلة رفضوا مبدأ فصل الدين عن الدولة (١)

---

(١) النص المســـتعمل هـــو : « عجائب الآثار فى التراجم والاخبار لمحقق زمانه ونادرة أوانه الرافل فى حلل العلوم المتوشـــح بنفائس منطوقها والمفهوم السابق فى حلبة الرهان اللـــوذعى العـلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الحنفى امطر عليه الله تعالى بواسع احســـانه وبره الخفى » (طبعة بولاق ٤ أجزاء)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثانى

رفاعة الطهطاوى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ــ رفاعة الطهطاوى

فى عام جلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، قيل بل وفى يوم خروج الفرنسيين وهو ١٥ أكتوبر ١٨٠١ ، ولد أبو الفكر المصرى الحديث ، ومؤسس نهضة مصر الثقافية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى رفاعة رافع الطهطاوى ، الذى استطاع بفكره وقلمه ونفـــوذه فيما تقـــلد من وظائف رسمية ، أن يرسى الاساس العظيم الذى بنى عليه الفكر المصرى الحديث ونهضت عليه الثقافة المصرية الحديثة

وقد عاش رفاعة الطهطاوى الى أن بلغ الثالثة والسبعين من عمره ، فقد توفى فى ٢٧ مايو ١٨٧٣ ، وبذلك يكون قد عاصر محمد على وابراهيم باشا وعباس الاول وسعيد باشا والخديو اسماعيل وبدايات حكم الخديو توفيق . وقد ظل يعمل ويكتب الى آخر أيام فى حياته ، وهو بفضل هذه الحياة المديدة فى قلب حياتنا الفكرية والثقافية قـد استطاع أن يؤثر في مجرى التفكير المصرى والثقافة المصرية تأثيرا عميقا متصلا جعـــل من أعسر العسير على أصحاب الفكر السلفى والثقافة السلفية أن يعودوا بمصر القهقرى الى ظلام العصور الوسطى الذى نشره الاستعمار العثمانى باسم الدولة الدينيـــة أو ما يسمى فى لغـــة المذاهب السياسية بالثيوقراطية . فرفاعة الطهطاوى اذن أبو الفكر الثورى الحديث ، فى كل مجال من مجالات الثقافة والفكر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السياسى والاجتماعى ، وفى التربية والتعليم ، وفى علوم الدين والدنيا ، فلا عجب أن خرج من عباءة هذا الشيخ العظيم أعلام الفكر التقدمى فى مصر الحديثة ، من محمد عبده وقاسم أمين وعثمان جلال الى لطفى السيد وطه حسين وعلى عبد الرازق الى محمود عزمى ومحمد مندور ولا عجب ان كانت ثورة ١٨٨٢ وثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ مدينة له بالشىء الكثير ، فهو الذى بذر بذور الفكرة الديموقراطية فى أول كتاب أصدره فى صدر حياته ، وهو « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » (١٨٣٤) ، وهو الذى بذر بذور الفكرة الراديكالية ، بل والفكرة الاشتراكية المعتدلة فى آخر كتاب عظيم أصدره فى أخريات حياته وهو « مناهج الالباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية » (١٨٦٩) . وهو الذى ثبت الفكرة القومية المصرية فى زمن كانت المصرية فيه رداء من أردية العار يعير به السادة الترك رعاياهم من « الفلاحين » . وهو الذى وضع الاساس المكين لتحرير المرأة ودعا لحقها فى العلم والعمل قبل قاسم أمين بخمسين عاما ، وهو الذى علم المصريين أن علوم الدين لا تغنى عن علوم الدنيا ان هم أرادوا أن يلحقوا بركب الحضارة ، وهو الذى بشر فى أرض مصر بالحرية والمساواة والاخاء أساسا للمجتمع الانسانى

وقد ولد رفاعة الطهطاوى وقضى طفولته الاولى وصباه الاول فى طهطا ، حيث تلقى علومه الاولى ، ثم تنقل غلاما بين منشاة النبدة (بجوار جرجا) ومدينة قنا وفرشوط ، ثم انتقل الى القاهرة عام ١٨١٧ ، بعد موت أبيه ليدرس فى الازهر ، وكان قد بلغ السادسة عشرة من عمره ، وفى الازهر تلقى الطهطاوى ما كان يتلقاه زملاؤه من علوم الدين واللغة والادب ، ولكنه تتلمذ على ذلك الشيخ الثائر الذى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان له أكبر أثر في توجيه رفاعة الطهطاوى كما كان له أكبر فضل عليه ، الا وهو الشيخ حسن العطار • وكان حسن العطار من أولئك العلماء الذين تفتحوا للعلوم والفنون الحديثة أيام الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١) ، وكان يختلف الى المجمع العلمى المصرى الذى أسسه بونابرت ويستمع الى ما يلقى فيه من محاضرات ويطلع فى مكتبته العامرة بالذخائر والنفائس • فألهب العطار تلميذه رفاعة الطهطاوى شوقا الى دراسة العلوم العصرية • ودرس رفاعة الطهطاوى فى الازهر حتى بلغ الحادية والعشرين من عمره ثم علم فى الازهر عامين أو نحوهما ، حتى كان عام ١٨٢٤ ، فعينه محمد على اماما فى فرقة من فرق جيشه الجديد الذى عكف محمد على على بنائه منذ ١٨٢١ • فلما قرر محمد على ايفاد اول بعثة من شباب ذلك العصر الى باريس عام ١٨٢٦ لتلقى العلوم الحديثة فيها ، من علوم طبيعية وتكنولوجية وعسكرية ، اختار رفاعة الطهطاوى ليكون اماما لهذه البعثة الاولى

ولم تكن لرفاعة الطهطاوى فى باريس بحكم منصبه وظيفة الا وظيفته الدينية ، ولكن هكذا شاءت ارادة هذا الرجل العظيم وشاءت سعة افقه ، أن يكون أكثر اقبالا على دراسة العلوم من الطلاب الذين أوفد معهم ليكون مثقفهم الدينى • وتركهم يتعلمون ما أوفدوا لتعلمه من علوم طبيعية ، وعكف على دراسة الاداب والفنون وعامة ما نسميه اليوم بالعلوم الانسانية • فبدأ باتقان اللغة الفرنسية وفيها قرأ التاريخ والجغرافيا والادب • ولما شاع أمر هذا الامام المقبل على الدرس والتحصيل ضمه محمد على الى عضوية البعثة ليستغل درايته باللغات وليجعل منه مترجما ينقل الى العربية ما تحتاج اليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العسكرية المصرية من علوم عسكرية وهندسية وطبيعية وكيميائية وطبية وجغرافية وتاريخية . ولكن رفاعة الطهطاوى درس الى جانب هذه العلوم الفلسفة وعلم الاجتماع والعلوم السياسية والمينولوجيا . وبذلك اجتمعت له تلك المعرفة الموسوعية التى لا غناء عنها لتكامل المعرفة . وأهم من هذا وذاك فقد كان رفاعة الطهطاوى يدرس بعقل متأمل كل ما كان يجرى حوله فى باريس من أحداث سياسية واجتماعية ، ويتأمل بعقل متفتح تكوين المجتمع الفرنسى وعاداته وسلوكه وأفكاره ومعتقداته الاساسية . بل ويشارك بفكره ووجدانه فى الثورة التحررية التى اجتاحت فرنسا عام ١٨٣٠ ، فأطاحت بالملكية المطلقة وبشارل العاشر ، آخر البوربون ، وجاءت بلويس فيليب وبنظام الملكية المقيدة

وبعد أن عاد رفاعة الطهطاوى الى مصر عام ١٨٣١ ، بدأ جهاده العظيم فى وضع أسس الثقافة المصرية الحديثة . فأنشأ فى ١٨٣٦ « مدرسة الالسن » وكان ناظرا لها ، وكان الهدف من انشاء هذه المدرسة تخريج أفواج من المترجمين الذين ينقلون الى العربية أمهات الكتب فى العلوم والفنون والاداب ، وبفضل رفاعة الطهطاوى أمكن لمدرسة الالسن أن تخرج أكثر من مائة مترجم منقف خلال عشر سنوات . وكان رفاعة الطهطاوى يراجع بنفسه ما يترجم من الكتب وينقحها ويشرف على طبعها ، وقد كان ثمرة ذلك الجهد العظيم أن أكثر من ألفى كتاب ترجم الى اللغة العربية فى تلك الفترة بفضل تفانى هذا الرجل العظيم وتلاميذه الاوفياء ..

ولكن رفاعة الطهطاوى حتى قبل انشاء مدرسة الالسن قد شغل عدة وظائف تتصل بثقافته وخبرته فى اللغتين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العربية والفرنسية ، وكان موضع تقـــدير من محمد على وابنه ابراهيم باشا • فما أن وصل الى الاسكندرية عـــام ١٨٣١ حتى استقبله ابراهيم باشا وأكرم وفادته ، وكان ابراهيم باشا قد سمع بجده وذكائه أثناء زيارته لباريس ، وأقطعه ٣٦ فدانا فى الخانكة • ولما وصـــل الطهطاوى الى القاهرة استقبله محمد على كما يستقبل العـــالم الكريم ، فقد كان محمد على يتلقى عنه أطيب التقـــارير من المسيو جومار Jomard مدير البعثة التعليمية المصرية فى باريس • وعين محمد على رفاعة الطهطاوى مدرسا فى مدرسة الطب بأبى زعبل ، حيث كانت العلوم تدرس باللغة الفرنسية ، وكان يلقيها الاساتذة الاجانب على الطلاب فيقوم المترجمون بترجمتها وقراءتها عليهم بالعربية • وكانت هيئة المترجمين قوامها من الشوام بزأسهم رجل يدعى عنجورى ، وكانوا يتقنون الفرنسية ولكن عربيتهم لم تكن ســـائغة ، فلما انضم رفاعة الطهطاوى الى هذه الهيئة لم يلبث ان خلف عنجورى رئيسا لهيئة المترجمين ، وكان ذلك أيام أن كان كلوت بك مديرا لمدرسة الطب

ثم نقل رفاعة الطهطاوى مترجما فى مدرسة الطوبجية (المدفعية) فى طره • وقد خلف فى هذا المنصب المستشرق الشاب كونيج Kœnig ، وفى أثناء عمله فى هذه المدرســـة ترجم رفاعة الطهطاوى بعض المؤلفـــات فى الهندســـة والجغرافيا مما يحتاج اليه طلاب المدارس العســـكرية فى دراستهم •وكان رفاعه الطهطاوى يميل بطبعه الى الجغرافيا أكثر من ميله الى الهندسة • وكان مدير مدرسة المدفعية ، واسمه دون أنطونيو دى سيجويرا بك Don Antonio de Seguera Bey قد اعتمد طبع كتاب فى الجغرافيا مؤلف بالعربية فى جزيرة مالطه ، ولكن رفاعة الطهطاوى وجد لغة هـــذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتاب سقيمة وعبارته ركيكة فنقحها تنقيحا شديدا حتى خرجت الطبعة الثانية أكمل بمراحل من الطبعة الاولى . ولم يكتف الطهطاوى بذلك فترجم للطلاب كتابا آخر فى الجغرافيا مما كان قد درسه فى باريس . وفى عام ١٨٣٤ تفشى فى القاهرة وباء الكوليرا ، فنزح رفاعة الطهطاوى الى بلدته طهطا ، وهناك عكف على ترجمة كتاب فى الجغرافيا لمالت برون Malte Brun ثم عاد الى القاهرة وقدم كتابه الى محمد على فمنحه رتبة « صاغ » فى الجيش

ولم يكن رفاعة الطهطاوى سعيدا بعمله فى مدرسة المدفعية ، غالبا بسبب غلبة العلوم الهندسية فى دراستها ، فوافق محمد على على نقله الى مدرسة اخرى . وكان محمد على قد انشأ فى ١٨٣٤ « مدرسة الادارة » لتخريج افواج من الموظفين الذين تحتاج اليهم دواوين الحكومة ، وجعل قوامها ثلاثين من الطلاب المثقفين ، بدرسون على أستاذين هما أرتين شكرى أفندى واسطفان رسمى أفندى ، وهما عضوا البعثة المصرية الاولى التى أوفدها محمد على الى باريس ، وكان الطلاب يدرسون فى مدرسة الادارة هذه اللغة الفرنسية والمحاسبة والهندسة والجغرافيا وفنون الادارة المدنية . وقد انضم رفاعة الطهطاوى الى هيئة التدريس فى هذه المدرسة التى كان الهدف من انشائها تخريج الموظفين ، وقد كانت أكثر مناهج الدراسة فى هذه المدرسة قائمة على الترجمة . فما أن كان الطلاب يتقنون اللغة الفرنسية اتقانا كافيا حتى كانوا يكلفون بترجمة كتاب من كتب التاريخ ينقلونه الى العربية فصلا فصلا ثم يدفع بالكتاب الى المطبعة . ولكن مدرسة الادارة هذه كانت قصيرة العمر ، فلم تلبث أن ألغيت عام ١٨٣٦ وأنشئت مكانها « مدرسة الالسن » الشهيرة ، التى نقل اليها كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طلاب مدرسة الادارة . كذلك أدمجت فى مدرسة الالسن « مدرسة التاريخ والجغرافيا » التى كان محمد على قد أنشأها عام ١٨٣٥ ملحقة بمدرسة المدفعية وجعل رفاعة الطهطاوى مديرا لها والاستاذ الوحيد بها ربما ارضاء له لضيفه بالعلوم الهندسية والرياضية ، وقد كان الغرض من انشاء « مدرسة التاريخ والجغرافيا » هذه امداد المدارس العسكرية العديدة التى أنشأها محمد على بمدرسين للتاريخ والجغرافيا . وقد أنشئت مدرسة الالسن بناء على اقتراح من رفاعة رافع الطهطاوى ، وقد شابهت هذه المدرسة عند انشائها خليطا من كلية الاداب وكلية الحقوق فى آن واحد ، وكانت اللغات التى تدرس فيها الى جانب العربية هى الفرنسية والتركية والفارسية والايطالية والانجليزية ، أما بقية مواد الدراسة فكانت التاريخ والجغرافيا والادب والشريعة الاسلامية والقانون، وكان طلابها يعلمون الترجمة بطريقة عملية ، فكانوا يشتركون فى ترجمة الكتب المقررة بمساعدة الاستاذ ، ثم تعرض ترجماتهم على أستاذ العربية لتنقيحها وتحسين صياغتها . ولذا فقد كانت هذه المدرسة فى أول عهدها تسمى « بمدرسة الترجمة »ثم سميت بعد ذلك « بمدرسة الالسن » وعين رفاعة الطهطاوى ناظرا أو مديرا لها بعد عام من انشائها . وكان يختار تلاميذه من قرى الصعيد ومن طلاب الازهر . وقد عين الفوج الاول من خريجى هذه المدرسة فى مختلف الوظائف بدواوين الحكومة ، كما توافر الكثيرون من خريجيها على ترجمة روائع الادب الفرنسى . وكان رفاعة الطهطاوى نفسه يقوم بتدريس اللغات والادارة والشريعة والقانون الفرنسى

ولكن الكتب الاولى التى قام طلاب مدرسة الالسن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخريجوها بترجمتها لم تكن كتب الادب ، بل كتب العلوم والفنون والصناعات واخصها كتب العلوم العسكرية، ثم كتب الطب والرياضة والهندسة . فلما انقضى عصر محمد على ، عصر الفتوحات العظيمة ، حول عام ١٨٤٠، وجاء عصر عباس الاول ، وكان عصر اضمحلال وانكماش اتجه خريجو مدرسة الالسن الى ترجمة الاثار الادبية . وقد عاشت مدرسة الالسن خمسة عشر عاما من ١٨٣٥ الى نوفمبر ١٨٤٩ حين أغلقها عباس الاول الذى كان يضيق بالعلوم والفنون والاداب جميعا ، بل وبكل بارقة من نور يمكن أن تشع فى العقول أو تضىء القلوب . ولم يبطش عباس الاول بمدرسة الالسن دفعة واحدة ، وانما بدأ بتشتيت اساتذتها الذين خدموا فى ظل محمد على وابراهيم باشا ، وكان فى مقدمة من شتتهم رفاعة رافع الطهطاوى بطبيعة الحال . ثم أمر عباس الاول بنقل المدرسة الى مدرسة المبتديان بالناصرية فى اكتوبر١٨٤٩، وكانت هذه المدرسة صغيرة البناء فلم تتسع لمكتبة مدرسة الالسن ولا لمتحفها ، فنقلت المكتبة والمتحف الى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ثم لم يلبث عباس الاول ان الغى مدرسة الالسن جملة فى نوفمبر ١٨٤٩ . وقبل ان ينصرم العام نقل رفاعة الطهطاوى منفيا الى السودان وعين ناظرا على مدرسة ابتدائية فى الخرطوم ونفى معه زميله وصديقه محمد ببومى أستاذ الرياضة الذى لم يحتمل الصدمة فمات فى السودان . وبابعاد الرأس تفرق الاعضاء . لقد كان من سخرية القدر ان عباس الاول الذى اقترن اسمه باغلاق المدارس فى مصر يرسل الى الخرطوم اكبر رأس مفكر فى البلاد ليعلم السودانيين !

واستبد الحزن برفاعة الطهطاوى فى منفاه ، ولكن هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يشغله عن عمله ، فترجم رواية « وقائع تليماك » لفنيلون Les Aventures de Télémaque Fénélon وقد نشرت فى بيروت وانصرف الى تنشئة شـــباب السودان الذين عاش الطهطاوى ليراهم يعلمون فى مدارس السودان فى عهد الخديوى اسماعيل

ولما مات عباس الاول عام ١٨٥٨ وخلفه سعيد باشا ، عاد رفاعة الطهطاوى الى مصر حيث استرد بعض مكانته الضائعة . فقد عين فى مختلف الوظائف الرفيعة : عين اولا مديرا للقسم الاوربى فى محافظة القاهرة ، ثم وكيـلا للمدرسة الحربية بالحوض المرصود ، ثم مديرا للمدرسة الحربية بالقلعة ، وكان يشرف على أقسام الترجمـــة والمحاسبة وغيرها . ورقى الى رتبة « المتمايز » . ولـكن كل هذه الاقسام او الادارات التى كان يشرف عليها رفاعة الطهطاوى الغيت عام ١٨٦٠ بما فى ذلك ادارة الترجمة . فظل بلا وظيفة محددة حتى عهد الخديو اسماعيل الذى عرف كيف ينتفع من خدماته فى نشر التعليم

وفى ١٨٦٣ اعاد الخديو اسماعيل ادارة الترجمة مرة أخرى ، وعين رفاعه الطهطـاوى مديرا لها ، وعينـه فى الوقت نفسه عضوا فى لجنة المدارس ، التى كانت تشرف على تنظيم التعليم فى مصر فكان خير معاون لعلى باشـا مبارك . وحين انشأ على مبارك مجلة « روضة المدارس » عام ١٨٧٠ ، جعل رفاعه الطهطاوى رئيس تحريرها . وقد ظل رئيسا لتحرير هذه المجلة ثلاث سنوات حتى مات فى ١٨٧٣ . ولقد كانت هذه المجلة الادبية الاجتماعية نصف الشهرية منبرا لصفوة مثقفى عصر اسماعيل ، فكان بين محرريها على باشا مبارك وعبد الله باشا فكرى ومحمد قدرى باشا واسماعيل باشا الفلكى ، وصالح بك مجدى ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو أنجب تلاميذ رفاعة الطهطاوى ، والشيخ حمزة فتح الله ، واسماعيل افندى صبرى (الشاعر اسماعيل باشا صبرى) ، ومعهم كان على فهمى رفاعة باشا ابن رفاعة الطهطاوى ، وكان من كبار رجال التعليم . وكانت هذه المجلة توزع بالمجان على تلاميذ المدارس لنشر الثقافة بين الطلاب . وفى عام ١٨٦٨ اعيدت مدرسة الالسن الى الحياة بعد ضمها لمدرسة الادارة وكانت هذه مركزا للدراسات القانونية ، وقد أصبحت النواة التى خرجت منها مدرسة الحقوق ، أو كلية الحقوق كما نسميها منذ تأميم الجامعة عام ١٩٢٥ . وقد كانت السنوات العشر الاخيرة من أخصب السنوات فى حياة رفاعة الطهطاوى .

واذا كان الطهطاوى قد بهر العقول فى صدر حياته بكتابه العظيم « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ، الذى صدر عام ١٨٣٤ ، وهو وصف وتحليل للمجتمع الفرنسى من كافة جوانبه ايام اقامة الطهطاوى فى فرنسا اماما للبعثة المصرية وعضوا بها ، فان « مناهج الالباب المصرية » الذى صدر عام ١٨٦٩ يعد فى نظرى أخطر كتاب فى فلسفة الاجتماع والسياسة والتشريع صدر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وليس فى عصر اسماعيل وحده . وحين قرر الخديوى اسماعيل — كجزء من خطته لجعل مصر دولة عصرية ، او « قطعة من اوربا » كما كان يقول — وضع أسس القانون المصرى على أساس القانون الفرنسى الذى يسمى عادة « كود نابوليون » (أى مدونة نابوليون أو قانون نابوليون) لجأ الى رفاعة الطهطاوى وتلاميذه لكى يحققوا له ما اراد . فاشترك رفاعة الطهطاوى وعبد الله بك السيد فى ترجمة القانون المدنى الفرنسى . واشترك عبد الله ابو السعد افندى وحسن فهمى فى ترجمة قانون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاجراءات تحت اشراف رفاعة الطهطاوى . وترجم محمد قدرى باشا قانون العقوبات ، أما صالح مجدى بك فقد ترجم قانون الاحكام الجنائية ، وكانت هذه الموسوعة القانونية هى الاساس الذى بنى عليه القانون المصرى الحديث . وقد كتب الطهطاوى بحوثا عديدة تشتمل على دراسات مقارنة بين الشريعة الاسلامية والتشريع الفرنسى

كذلك لعب رفاعة الطهطاوى دورا خطيرا فى حياة الصحافة المصرية ، دورا يجعل من واجبنا أن نسميه « أبا الصحافة المصرية » . فالصحيفة الاولى التى عرفتها مصر ، وهى الكوريه ديجيبت » ، Courier d'Egypte (أى « بريد مصر ») صدرت لاول مرة فى ٢٩ اغسطس ١٧٩٨ بأمر بونابرت ، واختفت بانتهاء الحملة الفرنسية ، وكانت تصدر باللغة الفرنسية لتخاطب جنود الحملة ونفرا قليلا من الاجانب المحليين القارئين بالفرنسية ، والصحيفة الثانية كانت «لاديكاد ايجبسيين » («العشرية المصرية») وهى بالفرنسية أيضا وقد صدرت بأمر بونابرت فى أول أكتوبر لنشر أبحاث المجمع العلمى المصرى

وبعد اكثر من ربع قرن من سنوات الفوضى السياسية والصراع من أجل السلطة ، أسس محمد على ، بعد أن استتب له الحكم فى البلاد ، الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » عام ١٨٢٨ أثناء بعثة رفاعة الطهطاوى وزملائه فى فرنسا . وكانت هذه الجريدة تظهر فى لغتين : التركية والعربية . ولما كانت لغة البلاد الرسمية يومئذ هى اللغة التركية ، فقد كانت «الوقائع المصرية» تكتب أصلا باللغة التركية ثم تترجم بعربية ركيكة مما كان فى طاقة جاهلية ذلك العصر . أما موضوعات هذه الجريدة الرسمية فلم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكن تخرج عن الاخبار الرسمية وبعض الوقائع المتفرقة ، ثم دخلتها الاخبار الواردة من الخارج ابتداء من العدد ١٥ وقد ظل الحال على هذا المنوال فى « الوقائع المصرية » حتى عين رفاعة الطهطاوى رئيسا لتحريرها فى ١١ يناير عام ١٨٤٢ أيام حكم ابراهيم باشا ، وقد شغل الطهطاوى هذا المنصب حتى نفاه عباس الاول الى السودان عام ١٨٤٩ . وحين تقلد رفاعة الطهطاوى رئاسة تحرير « الوقائع المصرية » ، كانت المواد التركية تشغل النصف الايمن من صفحات الجريدة باعتبار ان التركية كانت لغة البلاد الرسمية ، بينما كانت العربية تشغل النصف الايسر باعتبار أنها الفرع لا الاصل . فلما راس رفاعة الطهطاوى تحرير «الوقائع» عكس الوضع وخصص العمود الايمن للمادة العربية والعمود الايسر للمادة التركية . كذلك خطا الخطوة الباسلة التالية ، وهى أنه جعل المادة الاصلية تكتب أولا باللغة العربية ثم تترجم الى اللغة التركية ، وقد استطاع ان يحصل على ترخيص بذلك من ديوان المدارس الذى كان يشرف على اصدار « الوقائع المصرية» وكذلك خطا رفاعة الطهطاوى الخطوة الباسلة الثالثة فجعل أخبار مصر تتقدم كل الأخبار ثم تأتى بعد ذلك الاخبار الواردة من الخارج ، بما فى ذلك أخبار تركيا صاحبة السيادة على البلاد . وقد استطاع رفاعة الطهطاوى أن يثبت هذا النظام عاما كاملا ، ولكن الطبقة الحاكمة التركية لم تلبث أن تألبت عليه وأرغمته على التراجع فيما أجرى من اصلاحات ، فعاد كل شىء الى سيرته الاولى . ومع ذلك فقد استطاع رفاعة الطهطاوى أن يسجل للغة العربية والقومية المصرية نصرا أدبيا عظيما فى زمن كان نفوذ الترك فيه يسيطر على كل شىء فى البلاد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

او يكاد . أما بقية القصة فيما فعله هذا الرجل العظيم « بالوقائع المصرية » فهى انه افسح صفحاتهـــا للمواد الادبية والثقافية بوجه عام . فكان ينشر فيهامقتطفات من « مقدمة » ابن خلدون أو غيره من نصوص الادب العربى، أو ينشر فيها موادا فى الاقتصاد أو فى التجـــــارة أو فى التعريف بثروات السودان ووسط افريقيا . كذلك كانت افتتاحية « الوقائع المصرية » لا تخرج عن مقال فى مدح الوالى والتسبيح بحمده ، فجعل الطهطاوى من افتتاحية « الوقائع » مقالا تحليليا عميقا فى موضوع من الموضوعات السياسية والاجتماعية . أما عهده القصير فى رياســـــة تحرير « روضة المدارس » الذى صدر العدد الأول منهـــا فى ١٧ ابريل ١٨٧٠ ، فكان اهم ما يميزه اهتمامه المتصل بشئون المرأة واخبارها فلم يخل عدد من اعـــداد هـــذه المجلة من شىء يتصل بالمـــــرأة . بل لقد دعا الطهطاوى ناظرات مدارس البنات ومدرساتها لموافاة مجلته بالمقالات والموضوعات . ويبدو أن مدارس البنات القائمة يومئـــذ كانت كلها مدارس أهلية ، فبعض من كتبوا عن تاريخ هذه الفترة يقول أن أول مدرسة للبنات ذات صفة رســمية انشئت عام ١٨٧٣ بالسيوفية ، أنشأتها احدى زوجـات الخديوى اسماعيل ، ثم تعددت من بعدهـــا مدارس البنات ..

هذه صورة موجزة لسيرة ذلك المفكر العملاق الذى وضع أساس الفكرالمصرى الحديث والثقـــافة المصرية الحديثة ، منذ أن لمع نجمه نحو عام ١٨٣٤ الى ان انطفأ سراجه عام ١٨٧٣ . ومما يؤثر عنه فى حياته الشخصية انه اعتق من كان يملك من العبيد والجوارى ، لاشـــك عملا بمبادىء الحرية والمساواه والأخاء التى كان يعتنقها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد مات عن ثروة تقترب من الالفى فدان ، ومكتبة تحوى نحو ٤٥٠٠ كتاب وفى رواية نحو ٨٤٠٠كتاب من بينهـــا نحو ١٠٦٤ مخطوطا . وقد جمع اكثر هذا المال من عمله على طريقة ذلك الزمان ، فكان كلما ترجم كتـابا قيمـا اقطعه الوالى نحو مائتى فدان . اما أعمال الطهطاوى التى نشرت ، بين مؤلفة ومترجمة ، فقد بلغت ستة عشر مجلدا بحسب ما ورد ، فى كتاب حفيده الاستاذ فتحى الطهطاوى عن سيرته وآثاره الصادر فى ١٩٥٨ بمناسبة احتفـــال المجلس الاعلى لرعـــاية الفنـــون والاداب بمـــرور ٨٥ عاما على وفاته ، وهى : « القـــول السـديد فى الاجتهـــاد والتجـديد » و « البـــدع المتقـــرزة فى الشـــيع المتبررة » و « متن الأجـــرومية » و « التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية » و « منظوم فى مصطلح الحديث » و « نهاية الايجاز فى سيرة ســاكن الحجاز » و « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » و «مناهج الالباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية » و « المرشد الامين للبنات والبنين » و « التعريبـــات الثقافية لمـريد الجغرافية للطيرون» و«الكواكب المنيرة فى ليالى افراح العزيز المقمرة » و « قلائد المفاخر فى غـــريب عوائد الاوائل والاواخر » و « كتاب مبادىء الهندسة » و « القانون الفرنساوى المدنى » و « نظم العقود فى كسر العود » و « مواقع الافلاك فى وقائع تليماك » . وأما مخطوطات رفاعة الطهطاوى التى لم تنشر بعد فهى اربعـــة عشر مخطوطا ، بيانها :

« ارجوزة فى علم الكلام » و « بحث فى المذاهب الدينية لطلبة مدرسة الالسن » وموجز « معاهد التنصيص على شواهد التخصيص لبدر الدين القزوينى » و « انوار توفيق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجليل » و « نبذة فى تاريخ اسكندر الاكبر »و«نبذة فى الميتولوجيا » و «مقدمة تاريخ مصر» و «دستور فرنسا» و « كتاب وصول القوى الطبية » و « نبذة فى العلم والسياسة والصحة » و « قطعة من عمليات ضباط عظام » و « المعادن النافعة لتدبير معايش الخلائق » و « تعريب الامثال فى تأديب الاطفال » و « ترجمة رثاء فولتير للويس الرابع عشر » ، هذا عدا عشرات من الكتب اشرف الطهطاوى على ترجمتها فى الطب والتشريع والزراعة والجغرافية الطبيعية والرحلات والفلسفة والمنطق والتاريخ ، ومن أهمها « قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون » (عن تاريخ العصور الوسطى) ، و « نظم اللالىء فى السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك » و «كتاب فى تاريخ فرنسا ترجمة حسن قاسم»و«كتاب فى تاريخ الامبراطور شرلكان» و «كتاب الروض المزهر فى تاريخ بطرس الاكبر » و « كتاب تاريخ كرلوس الثانى عشر ملك السويد للباشجاويش محمد مصطفى » (تاريخ « شارل الثانى عشر » وهو من أهم مؤلفات فولتير) و «كتاب برهان البيان فى استكمال واختلال دولة الزمان تأليف منتسكيو وترجمة حسن الجبيلى » الخ ..

وهذه العناوين والموضوعات تعطى صورة واضحة لما كان يقرؤه المثقفون فى القرن التاسع عشر حتى قبل عصر اسماعيل . ومن يتأملها يجد ان مدرسة الالسن قد غذت المثقفين المصريين بمكتبة وافية تشتمل على أهم المراجع الاساسية فى التاريخ والادب والعلوم السياسية واوليات العلوم وبذلك وفرت الحد الادنى من الثقافة للمثقفين ، ورسخت فى نفوس المثقفين أهم المبادىء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التقدمية التى بنيت عليها الحضارة الحديثة

واذا اردت ان تعرف ثقافة مثقف او ان تعرف شيئا من فكره وسلوكه فادخل مكتبته . وقد جاء فى كتابات من عنوا بجمع اثار رفاعة الطهطاوى او التعريف بها ان مكتبته كانت تتميز بظاهرتين ، احداهما ارتفاع نسبة الكتب الموضوعة فى « العلوم المعاشية » كالتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والعلوم السياسية والطب والكيمياء الخ ثم ارتفاع نسبة الكتب الفرنسية عما هو مألوف عند امثاله من علماء الازهر الذين لم تشغلهم علوم الدين عن الاقبال على علوم الدنيا . ولكن رفاعة الطهطاوى نفسه لايتركنا بحاجة الى استقصاء مصادر ثقافته الاوروبية ، فهو يكتب فى كتابه الشهير « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » الذى صدر عام ١٨٣٤ متحدثا عن دراساته ايام اقامته بباريس بين ١٨٢٧ و ١٨٣١ فيقول :

« وقد قرات كثيرا من كتب الادب فمنها مجموعة نويل ، ومنها عدة مواضع من ديوان ولتير (يقصد اعمال فولتير)، وديوان رسين وديوان روسو (وديوان مونتسكيو)خصوصا مراسلاته الفارسية التى يعرف بها الفرق بين اداب الافرنج والعجم ، وهى أشبه بميزان بين الآداب الغربية والشرقية وقرأت أيضا وحدى مراسلات انكليزية صنفها القونتة شيسترفيلد « يقصد الكونت او اللورد تشسترفيلد » لتربية ولده وتعريفه ، وكثيرا من المقامات (يقصد القصص ؟ او المقالات ؟) الفرنساوية . وبالجملة فقد اطلعت فى اداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة

« وقرات فى الحقوق الطبيعية مع معلمها كتاب برلماكى وترجمته وفهمته فهما جيدا ، وهذا الفن عن التحسين والتقبيح العقليين (يقصد النقد العقلى)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يجعله الافرنج اساسا لاحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية .. وقرأت أيضا مع مسيو شواليه جزءين من كتاب يسمى روح الشرائع ، مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له منتسكيو ، وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين ، ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجي ، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم منتسكيو الشرق ، اى منتسكيو الاسلام . وقرأت أيضا فى هذا المعنى كتابا يسمى : عقد التانس والاجتماع الانسانى (يقصد العقد الاجتماعى) ، مؤلفه يقال له روسو ، وهو عظيم فى معناه

« وقرأت فى الفلسفة تاريخ الفلاسفة المتقدم المشتمل على مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم ومواعظهم . وقرأت عدة محال نفيسة فى معظم الفلسفة للخواجه ولتير . وعدة محال فى كتب قندلياق (يقصد كوندياك) ..

هذا اذن مفتاحنا الى المكونات الفكرية لعقل رفاعة الطهطاوى فى شبابه : درس الطهطاوى اعمال فلاسفة الثورة الفرنسية : فولتير ومونتسكيو وروسو وكوندياك كما درس بعض اثار حركة التنوير الاوروبية كخطابات اللورد تشسترفيلد لولده فيليب ستانهوب . ولو اننا بحثنا فى جولة فكرية عما كان يقرؤه ثوار ذلك العصر ، عصر الثورات الفرنسية ، بين ١٧٨٩ و ١٨٣٠ ، لوجدنا ان الغذاء العقلى الرئيسى لثائر مثل جفرسون أو وليم جودوين أو توماس بين او اللورد بيرون او شلى او جوته الشاب لم يكن يخرج فى صميمه عن اعمال فولتير وروسو ومونتسكيو وكوندياك ، وربما أضافوا اليهم شيئا من ديدرو وكوندورسيه وفولنى فرفاعة الطهطاوى اذن كان يعيش فى عصره مع اكثر العقول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقدمية واشدها ثورية ورفاعة الطهطاوى اذن قد تلقى بفكره ووجدانه من منابعها الاولى كل تلك الفلسفات الخطيرة العميقة الرهيبة ، العقلانية منها والوجدانية ،المادية منها والمثالية على السواء ، المتضاربة منها والمنسجمة فى وقت واحد ، الملتقية ، رغم ما يفصلها من هوة عميقه ، على شىء واحد ، وهو ضرورة زلزلة الملكية المستبدة القائمة على الحق الالهى والنظام الاقطاعى الارستقراطى بامتيازاته الطبقية وطغيانه المادى والروحى ، وضرورة تقويض دعائمها واعادة بناء المجتمع الانسانى على أسس جديدة من الحرية والمساواة والاخاء كما كان الناس يقولون أيام الثورة الفرنسية ..

هذه كانت الافكار الاساسية التى تعرض لها رفاعة الطهطاوى اثناء اقامته فى باريس وعاش فى مناخها خمس سنوات كاملة وكلها تقوم على الدعوة للحرية والمساواة والاخاء بين البشر ، وقد كانت مبادىء الثورة الفرنسية هذه هى الحل السياسى الاجتماعى والفلسفى الذى قدمه مفكرو البورجوازية الثائرة علىالارستقراطية ، ومثقفو الطبقة الوسطى الثائرة على الاقطاع . ومنهم من وصل اليه عن طريق الايمان بالعقل والحق الطبيعى ومنهم من وصل اليه بارتعاشة الوجدان او بحق الفطرة ، ولكن الفريقين التقيا عند مبدأ واحد هو تقديس الحريةوالمساواة امام الله والقانون وفرض الحياة وتعديل العقد الاجتماعى بين البشر بحيث يتحول من عقد اذعان الى عقد قائم على الاخاء بين الناس وعلى الاختيار الحر الذى لاشبهة فيه للاكراه . وجماع هذا هو مايسمونه بالديمقراطية الليبرالية أو حكم الشعب القائم على الحرية المطلقة فى الفكر والفعل والشعور والسلوك والتعبير فى أى شكل من الاشكال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولاشك أن رفاعة الطهطاوى كان حتى قبل سفره الى فرنسا قد سمع من استاذه الشيخ حسن العطار ومن غير الشيخ حسن العطار ذكريات عن الفرنسيين وتقدمهم فى العلوم والفنون ، وما كان الفرنسيون يعرضونه فى المجمع العلمى المصرى من تجارب فى الفيزياء والكيمياء او ماكانوا يعرضونه فى متحفهم ومرصدهم من ايات تدل على طول باعهم فى علوم النبات والحيوان والفلك وما الى ذلك كله . وقد رأينا كيف وقف الجبرتى مبهورا امام ما رآه فى المجمع العلمى المصرى من فتوحات العلم الحديث . كذلك نلمس من صفحات الجبرتى انه وقف وقفة المبهور من تقدم الفرنسيين الالى والتكنولوجى ومهارتهم ونظامهم فى انجاز الاعمال . فهو مثلا يحدثنا عن الطريقة الى شق بها المهندسون طريقا مستقيما طويلا

« من الازبكية الى جهة قبة النصر المعروفة بقبة العزب جهة العادلية على خط مستقيم من الجهتين . وقيدوا بذلك انفارا منهم يتعاهدون تلك الطرق ويصلحون مايخرج منها عن قالب الاعتدال بكثرة الدوس وحوافر الخيول والبغال والحمير ، وفعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم فى أقرب زمن ، ولم يسخروا احدا فى العمل ، بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن اجرتهم المعتادة ويصرفونهم بعد الظهيرة ، ويستعينون فى الاشغال وسرعة العمل بالالات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة فى العمل وقلة الكلفة : كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف ، يملؤها الفاعل ترابا او طينا او احجارا من مقدمها بسهولة ، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ، ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجرى على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عجلتها بأدنى مساعدة الى محل العمل ، فيميلها باحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة . وذلك لهم فؤوس وفزم محكمة الصنعة متقنة الوضع ، وغالب الصناع من جنسهم ، ولا يقطعون الاحجار والاخشاب الا بالطرق الهندسية على الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة » . (« عجائب الاثار » ٣/٣٣)

وفى هذا الوصف واشباهه يتجلى اعجاب الجبرتى بما رآه عند الفرنسيين من تقدم آلى وحسن تنظيم ومهارة فى استخدام الذكاء العملى . كذلك يتجلى اعجاب الجبرتى ببعض القوانين التى سنها الفرنسيون صيانة للصحة العامة او للامن العام : « وفيه نادوا بوقود قناديل سهارى بالطرق والاسواق وان يكون على كل دار قنديل وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل وان يلازموا الكنس والرش وتنظيف الطرق من العفوشات والقاذورات » (٣/١٩) او « وفيه نبهوا على الناس بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن كتربة الازبكية والرويعى ، ولا يدفنون الموتى الا فى القرافات البعيدة ، والذى ليس له تربة يدفن ميته فى ترب المماليك ، واذا دفنوا يبالغون فى تسفيل الحفر . ونادوا ايضا بنشر الثياب والامتعة والفرش بالاسطحة عدة ايام وتبخير البيوت بالبخورات المذهبة للعفونة ، كل ذلك للخوف من حصول الطاعون » (٣/٢١)

ولكن رغم كل هذا الاعجاب الواضح فى الجبرتى نجده لا يتجاوب مع عادات الفرنسيين وتقاليدهم ومعتقداتهم الا فيما ندر . فالجبرتى شديد الهجاء لما رآه من سفور المرأة الفرنسية وتحررها وتفانى الرجل الفرنسى فى احترامها و « الخضوع » لها على حد قوله ، وهو شديد التنديد بما تجسم له من انه انحلال اخلاقى نتيجة لاختلاط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجنسين وانحراف عن الفضيلة . ولعل من المواضع الفليلة التى خرج فيها الجبرتى عن تحفظه فى وصف ذلك المجتمع الاوروبى الغريب المحيط واعلن فيها اعجابه بنظم الفرنسيين كان حيث تعرض لوصف محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر ، فهو يتوسع فى سرد كل ماجرى من اجراءات وينقل كل مادون من محاضر : « لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ، ولما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين ، وكيف قد تجارى على كبيرهم يعسو بهم رجل افاقى اهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله من اخبر عنهم بمجرد الاقرار ، بعد ان عثروا عليه ووجدوا معه الة القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم واميرهم ، بل رتبوا حكومة ومحاكمة واحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام ، مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ، ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم ، واطلقوا مصطفى افندى البرصلى الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور بخلاف مارأيناه بعد ذلك من افعال أوباش العساكر (يقصد العثمانية فى ثورة القاهرة الثانية) الذين يدعون الاسلام ويزعمون انهم مجاهدون وقتلهم الانفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية » (١١٧/٣)

ولاشك أن موقف الجبرتى كان يختلف تماما عن موقف رفاعة الطهطاوى فالجبرتى كان مصريا لم ير فى الفرنسيين الا جيش احتلال غزا بلاده واغتصبها ، ومهما كان هو ومعاصروه قد لمسوا الفرق بين الغاصب الجاهل كالترك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمماليك والفاصب المستنير كالفرنسيين ، فالفاصب غاصب مهما علا كعبه فى مدارج الحضارة ، والشعب الصريع لا يرى منه الا نواجذه ، بل وربما لا ينبغى ان يرى منه الا نواجذه . اما رفاعة الطهطاوى ، فقد رأى الفرنسيين فى بلادهم وخالط مجتمعهم المدنى على طبيعته وبذلك اتيح له أن يدرس كيانهم الاجتماعى وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم بفكر مفتوح واضح الحياد . ولعل ربع قرن من حكم محمد على وتعاظم بأس مصر فى الشرق الاوسط واندفاع مصر الى الاخذ بالاسباب المادية فى الحضارة الاوروبية قد يسر مهمة رفاعة الطهطاوى وجعله يركز انتباهه على الجوانب الفكرية والروحية والانسانية فى المجتمع الفرنسى . لقد انتهى عصر الصدمة الاولى التى ايقظت المصريين الى ضرورة الاخذ بالعلوم الحديثة لتجديد حياتهم المادية ، وغدت هذه ، بفضل محمد على سياسة البلاد الرسمية . ولكن بقيت مهمة اشد عسرا وهى ضرورة الدعوة الى الاخذ بالفلسفات الحديثة لتجديد الحياة الفكرية على ارض مصر ، فليس بالمادة وحدها يحيا المجتمع ولقد تصدى رفاعة الطهطاوى لهذه المهمة فكان نعم المفكر ونعم البشير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ ــ تحرير المرأة : ١٨٣٠

عندما وطئت قدما رفاعة الطهطاوى ارض فرنسا لاول مرة عام ١٨٢٦ ، كان اول ماستوقف نظره الحرية التى تتمتع بها المرأة الفرنسية ووضعها الممتاز فى المجتمع الفرنسى بالنسبة الى ما الفه الطهطاوى فى تقاليد بلاده . وكان اول مظهر من مظاهر هذه الحرية هو السفور الذى سبق ان لاحظه الجبرتى فى نساء الفرنسيين . اما الجبرتى فقد رأى فى سفور النساء واختلاطهن بمجتمع الرجال الذين رآهم ايام الحملة الفرنسية ومشاركتهن فى الحياة العامة مظهرا من مظاهر الانحطاط الخلقى الذى يستوجب التنديد واما الطهطاوى فقد اتاحت له ظروفه ان يقيم سنوات فى هذا المجتمع السافر النساء ويدرسه عن كثب ولذا جاءت احكامه عليه مختلفة كل الاختلاف عن احكام الجبرتى . فهو اولا ينفى ان للسفور او الحجاب صلة بفساد الخلق أو بالفضيلة . وهو يقول فى « تخليص الابريز » :

« وحيث ان كثيرا مايقع السؤال من جميع الناس عن حالة النساء عند الافرنج كشفنا عن حالهن الغطاء . وملخص ذلك ايضا ان وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا ياتى من كشفهن او سترهن ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة ، والتعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك فى المحبة والالتئام بين الزوجين . وقد جرب فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بلاد فرنسا ان العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات الى الرتبة الوسطى من الناس دون نساء الاعيان والرعاع . فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهم الشبهة كثيرا ويتهمون فى الغالب »

وواضح من كلام رفاعة الطهطاوى انه يشير الى حالة الراى العام فى مصر وشدة اهتمامه بأن يعرف شيئا عن وضع المراة فى أوروبا ومدى ماتتمتع به من حريات ومدى اثر هذه الحريات فى افسادها . فيقول ان هذه الاسئلة وامثالها تقع من « جميع الناس » وهذا يدل على انه يعالج هنا مشكلة اجتماعية حقيقية ، نجد أصداءها اولا فى الجبرتى وجيله ، ولاشك ان هذه المشكلة تفاقمت مع الايام بسبب الانفتاح الشديد للحضارة الاوروبية فى عهد محمد على وازدياد مخالطة المصريين للاوروبيين . اما ثورة الحريم ايام الحملة الفرنسية ، فقد سبق ان جاء وصفها فى مشاهدات الجبرتى . وهاهو ذا كلوت بك يصف لنا فى ١٨٤٠ وجها من وجوه هذه الثورة :

« أورد نابليون بونابرته حكاية مؤامرة دبرت فى أحد الحمامات العامة بلد لى ايرادها فى هذا المقام لما احتوته من الدليل على ان اقامة ذلك الرجل العظيم بمصر قد أدهشت العقول وحركت الخواطر كلها حتى خواطر النساء ، وكانت لجميع أهل المشرق عنوانا على تبدل الاحوال بحال لم يسبق لها من قبل مثال . قال :

« تزوج الجنرال منو بامراة من رشيد وعاملها معاملة السيدات الفرنسيات ، اذ كان يمد اليها يده كلما هم بالدخول معها الى غرفة الطعام ، ويتحرى لها اوفق المجالس ويقدم اليها خير الاطعمة واشهاها . وكان اذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها بادر بأخذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واعادته الى مكانه . فلما روت تلك المراة هذه الامور على صاحباتها في احمد حمامات رشيد لاحت لهاته النسوة بارقة الامل في تغير احوالهن وعاداتهن ، وحررن عرضا قدمنه الى السلطان الكبير ـ بونابرته ـ ليحمل ازواجهن على معاملتهن بمثل مايعامل منو زوجته الرشيدية به . »
(« لمحة عامة الى مصر » ج ١/٦٢٤ ـ ٦٢٥)

فبدايات هذا القلق الاجتماعي التي بدات نحو ١٨٠٠ لاشك نمت في الجيل التالي مباشرة ، جيل محمد علي ، ولم يعد هذا القلق الاجتماعي مقصورا على النساء ، بل تجاوزه الى شرائح من مجتمع الرجال الذين اتيح لهم ان يخالطوا الاوروبيين سواء في بلادهم او في مصر ، حيث استقدمهم محمد علي بفزارة حتى اشتهر عصره بانه عصر البعثات والخبراء الاجانب . ولاشك ان الجسم الاكبر من الراي العام في الطبقات الميسورة والمستورة ، حتى نحو ١٨٣١ ايام ان كتب رفاعة الطهطاوي « تخليص الابريز » كان محافظا ينفر من سفور المراة ومن تعليمها ومن مزاولتها اي عمل من الاعمال ومن اختلاطها بمجتمع الرجال او مشاركتها في الحياة العامة على اي وجه من الوجوه . اقول في الطبقات الميسورة والمستورة فقط ، لان قارىء كلوت بك وغير كلوت بك يستطيع ان يعرف دونما اي لبس ان المشكلة لم تكن قائمة في اية صورة من الصور بالنسبة لنساء الطبقة العاملة سواء من الفلاحين او العمال . فكلوت بك يقول : « اما نساء الفلاحين فيرحن ويجئن طليقات من غير قيد ، وكثيرا مايتفق ان يبعث ازواجهن بهن الى الاسواق لبيع الحاصلات المختلفة او غيرها » (كلوت بك ١/٦٢٢ ـ ٦٢٣)

فالقضية الكبرى التي كانت مطروحة على اوسع نطاق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الطبقتين الوسطى والعليا من المجتمع المصرى : الى أى مدى يمكن للتشبه بالاوروبيين ان يتجاوز الاخذ بما لديهم من علوم متقدمة ومهارات تكنولوجية الى الاخذ بما لديهم من قيم ومعتقدات واخلاق وقواعد فى السلوك ، ولاسيما فيما يتصل بنصف المجتمع وهو جنس النساء . ويبدو من كلام رفاعة الطهطاوى أن المصرى العادى كان الى نحو ١٨٣٠ يجيب بالرفض ، الرفض المسبب او الرفض الانفعالى وانه كان يربط بين تحرير المرأة ومساواتها بالرجل وبين الفساد الخلقى وانهيار الكيان الاجتماعى . نفهم منه هذا الأثر دعوة الطهطاوى بأن « وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لايأتى من كشفهن او سترهن بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة » هى بمثابة رد على اعتراض قائم بالفعل فى أذهان الناس ، وقد رأى الطهطاوى فيه وهما يجب ازالته ، مستندا الى ماراه فى فرنسا من سفور النساء وتحررهن ومساواتهن بالرجال ، دون أن يؤدى ذلك الى تدهور الاخلاق عند نساء الطبقة المتوسطة . ولاشك أن الطهطاوى كان من أبناء الطبقة المتوسطة ، وهى اشد الطبقات محافظة فى جميع بلاد العالم ، وانه كان حريصا على طمأنة ابناء الطبقة المتوسطة ، من دون بقية الطبقات ، على شرفهم ان هم أذنوا لنسائهم ان تسفر واعطوهن القدر الكافى من الحرية والمساواة الحافظ لكرامة الانسان ولحقوق الانسان المشكلة ليست فى سفور المرأة أو حجابها ولكنها فى التربية الصالحة والتربية الفاسدة . وقد دلت التجربة بحسب مايستنتج من كلماته ، ان نساء الطبقة الوسطى يملكن فرص التربية الصالحة اكثر مما تملكها نساء الطبقة الارستقراطية والطبقة العاملة . ان قاسم امين لم يضف كثيرا الى دفاع الطهطاوى عن حقوق المرأة وحرياتها ، ولكنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبر عنه بنبرة اجهر وباصرار اقوى . قال الطهطـــاوى فى « تخليص الابريز » :

« وعادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والراس والنحر وماتحته والقفا وماتحته واليدين الى قرب المنـــكبين . والعادة أيضا أن البيع والشراء بالاصالة للنســـاء ، واما الاشغال فهى للرجال فكان لنا بالدكاكين والقهـــــاوى ونحوها فرجة عليها وعلى مايعمرها . وكان اول ماوقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها فراينـــاها عجيبة الشكل والترتيب والقهوجية امراة جالسة على صفة عظيمة وقدامها دواة وريش وقائمة »

وهذه أيضا من الملاحظات التي نجدها ايضا فى قاسم امين بعد خمسين سنة ويزيد : الا وهى استعداد المراة للاشتغال بالتجارة . والطهطاوى فى حديثه عن اشـــتغال المراة بالتجارة ، وادارة الاعمال لايبدو عليه الاســـتهجان وانما يبدو عليه انبهار من وقف على كشف عظيم او على طريفة من الطرائف الكبرى ، اما اختلاط النساء بالرجال فقد لاحظه الطهطاوى وسجله ووقف منه موقفه من سفور المراة ، فلم ير ان فيه مايشين الخلق أو يؤدى الى الفساد فالاختلاط تمارسه الجزائر وغيرهن : « ونساء الفرنساوى بارعات الجمال واللطافة حسان المسايرة والملاطفة يتبرجن دائما بالزينة ويختلطن مع الرجال فى المتنزهات ، وربمـــا حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك المحـــال سواء الاحرار وغيرهن ، خصوصا يوم الاحد الذى هو عيد النصارى ، ويوم بطالتهم ، وليلة الاثنين فى البـــارات والمراقص الاتى ذكرها .. » الاختلاط بين الجنسين اذن لاغبار عليه ، وهو ليس من صفات الطبقة الســـفلى فى المجتمع بل من صفات العقائل والحرائر والارجح انه يقصد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بكلمة « الاحرار » مانسميه نحن ببنات الناس او ببنـــات العائلات

ويصف لنا رفاعة الطهطاوى وجها من وجوه هـــذا الاختلاط بين الجنسين فى المراقص أو « البالات » كمـا يسميها (والكلمة فرنسية) فلا نحس فى كلامه امتعاضا من امتعاض الشرقيين المحافظين من مراقصة الرجـــل للمراة ، بل نحس منه ، على العكس من ذلك اعجـــابا شديدا بالرقص الافرنجى والسمو به الى مستوى الفن الجميل ، والارتفاع به عن الشهوانية الفاسقة التى يتميز بها الرقص الشرقى فى نظره

« وقد قلنا ان الرقص عندهم فن من الفنون ، وقـد اشار اليه المسعودى فى تاريخه المسمى مروج الذهب ، فهو نظير المصارعة فى موازنة الاعضاء ، ودفع قوى بعضها الى بعض . فليس كل قوى يعرف المصارعة ، بل قـد يغلبه ضعيف البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم . وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الاعضاء . وظهـر ان الرقص والمصارعة مرجعها شىء يعرف بالتامل ويتعلـــق بالرقص فى فرنسا كل الناس ، وكانه نوع من الليـــاقة والشلبنة ، لا من الفسق ، فلذلك كان دائمـــا خارجا عن قوانين الحياء ، بخلاف الرقص فى ارض مصر ، فانه من خصوصيات النساء لانه لتهييج الشهوات . واما فى باريس فانه نط مخصوص لايشم منه العهر ابدا وكل انسان يقوم بامراة يرقص معها . فاذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا وسواء كان يعرفها أو لا . وتفرح النساء بكثرة الراغبين فى الرقص معهن ، ولا يكفيهن واحد أو اثنان ، بل يحببن رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسآمة انفسهن من التعلق بشىء واحد . . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد يقع ان من الرقص رقصة مخصوصة : يرقص الانسان ويده فى خاصر من ترقص معه ، واغلب الاوقات يمسكها بيده . فمس المرأة أيما كانت فى الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن ، عد هذا من الادب .. وصاحبة البيت تحيى اهل المجلس »

هذه المقارنة التى يعقدها رفاعة الطهطاوى بين الرقص الافرنجي والرقص الشرقي مقارنة هامة ، لانه تحمل فيها مسئولية التنديد برقص الغوازى ورقص العوالم فى مصر ووسمه بالانحطاط والشهوانية بينما رفع الرقص الافرنجى الى مرتبة الرياضة والفن الجميل ، فهو بهذا يقول اننا اقرب الى الفسق فى لهونا من الاوربيين ، وهذا عكس الفكرة التى صورها الجبرتى عن المجتمع الفرنسى والمصرى المختلط الذى رآه يحتفل بالرقص والغناء فى عيد وفاء النيل رجاله مع نسائه . وقد أخطأ الطهطاوى فى تفسير ظاهرة مراقصة المرأة الفرنسية لرجال متعددين ونسبها الى سأم النساء ورغبتهن فى التغيير . وحقيقة الامر هى أن تقاليد المجتمع الفرنسى المحافظ تمنع المرأة من مراقصة رجل واحد باستمرار أثناء الحفلات لان فى ذلك معنى « الاهتمام الخاص » من الرجل بالمرأة ، فان كانت متزوجة عد هذا أمرا معيبا ، وان كانت آنسة كان ذلك من مقدمات تقدم الشاب لخطبة الفتاة . وقد اهتم الطهطاوى بشرح آداب السلوك فى حفلات الرقص التى شاهدها ، فهو يقول فى « تخليص الابريز » :

« ومن المنتزهات محال الرقص المسماة البال وفيه الغناء والرقص . وقل ان دخلت ليلا فى بيت من بيوت الاكابر الا وسمعت به الموسيقى والمغنى . ولقد مكثنا مدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا نفهم لغنائهم أصلا لعدم معرفتنا بلسانهم ..

« والبال قسمان : بال عام ، ويدخله سائر الناس ، كالبال فى القهاوى والبساتين ، والبال الخاص ، وهو ان يدعو الانسان جماعة للرقص والغناء والنزهة ونحو ذلك ، كالفرح فى مصر .. والبال دائما مشتمل على الرجال والنساء وفيه وقدات عظيمة وكراسى للجلوس .. والغالب ان الجلوس للنساء ، ولا يجلس أحد من الرجال الا اذا اكتفت النساء . واذا دخلت امراة على أهل المجلس ولم يكن كرسى خاليا ، قام رجل واجلسها ، ولا تقوم لها امراة لتجلسها . فالانثى دائما فى المجالس معظمة أكثر من الرجل ثم ان الانسان اذا دخل بيت صاحبه فانه يجب عليه ان يحيى صاحبة البيت قبل صاحبه ، ولو كبر مقامه ، ما امكن ، فدرجته بعد درجة زوجته او نساء البيت . ومن المنتزهات جمعية الناس كخيمة مصر ، الا ان فيها دائما الات الموسيقى والغناء والرقص ، وبين كل نوبة من الموسيقى والغناء يقسم على الحاضرين بعض مطعومات ومشروبات خفيفة . وبالجملة فالموسيقى بالاصالة والشراب الخفيف بالتبعية »

فرفاعة الطهطاوى يصر دائما على ابراز فكرة هامة فى نظره ، وهى احترام المجتمع الاوربى للمراة ، وربما كان مصدر اصراره على ابراز هذه الفكرة هو رغبته فى تلقين المصريين ضرورة تغيير نظرتهم للمراة ومعاملتها بما تستحقه من الاعتبار بدلا من اعتبارها مجرد متاع . وواضح من كلام الطهطاوى انه كان يخالط اكرم العائلات الفرنسية ويرصد آداب السلوك بينها . غير أن فى كلامه مايدل على أنه كان يضيق أحيانا بما كان يراه فى باريس من اسراف اهلها فى مجاملة النساء ، فهو يقول : « ثم ان الرجال عندهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبيد النساء وتحت امرهم سواء كن جميلات ام لا . قال بعضهم ان النساء عند الهمج معدات للذبح ، وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت ، وعند الافرنج كالصغار المدلعين» . والطهطاوى هنا يضع يده على روح « الكورتوازيه » أو « الفروسية » التى ورثتها اوربا الحديثة ولا سيما فى البلاد الكاثوليكية ، عن العصور الوسطى ، وهى تقوم على لون من تقديس المرأة بالمعنى المجازى طبعا ، تقديسا لا علاقة له بالرغبة الجنسية وليس له تفسير انثروبولوجى عندى الا انه من رواسب المعتقدات الدينية الكاثوليكية التى تفرد لمريم العذراء منزلة خاصة فى الديانة المسيحية تكاد ان تسمو على منزلة المسيح . ولاشك أن الطهطاوى انتقد اسراف الرجل الفرنسى فى تقديس المرأة وخدمتها ، قائلا ان اسلام الرجل قياده للمرأة شر وبيل

كذلك يهتم رفاعة الطهطاوى بابراز فكرة اخرى ابرازا قويا ، والاغلب انه يريد بذلك ان يزيل فكرة شائعة عن الاوربيين بين المصريين فى زمانه ، وهى ان الرجل الاوربى خال من « الغيرة » على زوجته ، بارد لا يحرك ساكنا اذا عرف بسوء سلوكها . والطهطاوى يحاول أن يشرح لقرائه ان هناك فرقا بين الخلو من الغيرة العطيلية القائمة على العقل المسمم بالشكوك وبين رفض الانحراف ، فهو يقول: « ولا يظن الافرنج بنسائهم ظنا سيئا اصلا مع ان هفواتهن كثيرة معهم » . فالاصل ان الرجل الاوروبى « يثق » فى زوجته ويفترض مسبقا انها مستقيمة السلوك تخلص له ، ولا يفترض مسبقا ان المرأة من حيث هى امرأة جنس خوان تحت أية ظروف . فهو اذا أباح لها مخالطة الرجال او الانتقال بمفردها او الرقص مع سواه لا يفعل ذلك من باب الانحلال الخلقى وعدم المبالاة وانما يفعله من باب الثقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيها وفى وفائها . وفى هذا يقول الطهطاوى : « ولا يظن بهم انهم لعدم غيرتهم على نسائهم لا عرض لهم فى ذلك ، حيث ان العرض يظهر فى هذا المعنى اكثر من غيره لانهم وان فقدوا الغيرة لكنهم ان علموا عليهن شيئا كانوا اشر الناس عليهن وعلى انفسهم وعلى من خانهم فى نسائهم . غاية الامر انهم يخطئون فى تسليم القيادة للنساء ، وان كانت المحصنات لا يخشى عليهن شيء » فالفرنسى اذن ، رغم انه لا « يغار » على زوجته ، كفيل بأن يدمرها ويدمر عشيقها ويدمر نفسه لو عرف عنها سوءالسلوك ، وهو اكثر مما يفعله المصرى فهو عادة يدمر زوجته ويدمر عشيقها ثم يقضي بقية حياته ـ غالبا بين جدران السجون ـ راضيا عن نفسه لانه غسل بالدماء شرفه المثلوم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ ــ أبو الديمقراطية المصرية

كفاح الشعب المصرى فى سبيل الديمقراطية قديم ، وقد كان لمصر برلمان اسمه « البولا » قبل الفتح الرومانى وكان مقره مدينة الاسكندرية ، فعصف به الرومان . وقد حاول المصريون استخلاصه من أباطرة الرومان ولكنهم عجزوا لانهم تمسكوا بمبادىء الحرية والمساواة غير انهم فقدوا القدرة على التنظيم السياسى ، او على الاصلاح افقدهم اياها غزاتهم . وبعد الفى عام أو نحوها من الحكم الاوتوقراطى ، ظهر فيهم رفاعة رافع الطهطاوى لينادى بسيادة الشعب على الملوك وليفتح أعينهم على تجارب الامم الاخرى فى ممارسة الحرية والمساواة من خلال الدساتير والنظم النيابية

(١) « سلطان الملوك على أجسام الرعايا لا على قلوبهم »
« رفاعة الطهطاوى »

(٢) « أما الشعب المصرى فلم يساهم قط فى شىء ما من التصميمات التى أقرها ولا فى اختيار الوسائل التى استحسنها لتنفيذها . بل القى فى طريقه كل ما استطاع أن ينثره فيه من الصعوبات والمعاثر لتعطيلها ، واقام فى وجهه الاعتراضات الجمة عليه . ولقد رأى محمد على عندئذ انه ، لايلاف ذلك الشعب وتعويده الانس بتلك الانظمة الجديدة ينبغى العمل لازالة ما ران على قلبه من الشكوك ومكافحة ميله الى التشبث والعناد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« ولا يأخذن المصريين احد بجريرة هذه النزعات ، فان الروسيين لم يشدوا ازر بطرس الاكبر فيما تصدى لاجرائه من جلائل الاعمال وادخاله على شئونهم من نافع الاصلاحات . وتلك شنشنة معروفة عن الامم فى ادوار ارتكاسها وتنكسها . كلما ظهر من بينها مصلح يريد الاخذ بيدها والنهوض بأمرها والسمو بها الى الغايات العالية فى الحضارة والرفاهية ، تعرضت له بالعمل على احباط مساعيه . والقت فى طريقه العقبات والمصاعب

« لم يذكر التاريخ مثلا لامة نهضت بدافع من نفسها لبناء صرح المدنية واقامة معالمه . وانما الذين تعرضوا لذلك أفراد امتازوا بذاتية متينة وعبقرية عالية فدعوا الى مشاركتهم فى عملهم ابناء وطنهم . وكثيرا ما لجأوا فى تنفيذ مقاصدهم ، اذا أرهقتهم من هؤلاء نزعة الجمود على القديم ، الى وسائل العنف والشدة . وتعليل هذه الحالة ليس بعازب على الفطن اللبيب لامكان تطبيق المنطق عليه . فقد جبل الانسان على أن لا يهتم الا بما يشعر بضرورة قضائه من الحاجات لنفسه ، وأن لا يتحرى المزايا والفوائد الا بنسبة اهميتها وضرورتها لشخصه . ولما كانت الشعوب التى على فطرة التوحش والهمجية لا تشعر بشىء من الحاجات عادة ، فانها تجهل طبعا فوائد المدنية ومزاياها ، ولا يتاح لها تقدير اهميتها الا اذا رضخت لارادة رجل تأججت فى صدره نار المطامع الشريفة وجمع عزيمته على نيلها مستعينا فى ذلك بتلك الشعوب ذاتها ، وانما عبقرية الرجل العظيم فى تقديره اهمية ما يراه من الوسائل محققا لمراده . ولقد كان محمد على ذلك الرجل فيما يتعلق بمصر »

« كلوت بك »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذان منهجان فى اصول الحكم للفكر البورجوازى الثورى ، كان من نقائض الحياة ان يكونا ثمرتين من ثمار الثورة البورجوازية العظمى ، الا وهى الثورة الفرنسية: المنهج الاول ، منهج رفاعة الطهطاوى ، وقد ادى الى تعميق تيار الديموقراطية وتتويج الدساتير وانتصار الشعوب . اما المنهج الثانى ، منهج كلوت بك ، فقد ادى الى تعميق فكرة المستبد المستنير او الدكتاتور المصلح . الاول خرجت منه الملكيات المقيدة والنظم الجمهورية البرلمانية ونظرية فصل السلطات ومبدأ سيادة القانون ، والثانى خرجت منه الانظمة الثورية الفردية والشمولية معا وانظمة الطفاة بالمعنى الاغريقى الاصلى القديم « للطاغية » بمعنى الدوتشى الايطالى او الفوهرر الالمانى او الاب أتركى كما كان « أتا تورك » يحب ان يسمى نفسه « ابا الاتراك » او « الاخ الاكبر » كما فى كتابات جورج أورويل ، فالطاغية أو « التيرانوس Tyrannos » بالمعنى اليونانى القديم لم يكن معناه مجرد الحاكم المستبد ولكن « الملك المنتخب » ببيعة الجماهير لأنه انقذ البلاد من شر وبيل كما فعل اوديب بطيبة واهلها فاعلنوه « تيرانوس » او « ملكا » عليها

والحق ان كلوت بك لم يكن يفكر فى الدفاع عن الحاكم المستبد من حيث هو حاكم مستبد . فتاريخ فرنسا كتاريخ كل بلاد متحضرة عرف من الحكام المستبدين طائفة عظيمة ملأت بلاده جهلا وظلما وفاقة واضمحلالا ، وانما كان كلوت بك يفكر فى اصحاب الحكم المطلق من الملوك المستنيرين او من زعماء الثورات التقدمية الذين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غيروا معالم الحياة فى بلادهم وربما فى العالم اجمع بالعنف العنيف ، من الاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر ولويس الرابع عشر وبطرس الاكبر ، الى بزيستراتوس وكروميل ونابوليون . وهو لذلك يستدرك قائلا :

« ولست ادعو احدا الى اعتبار والى مصر واحدا من رسل الحضارة والمدنية بل ادعو الى وجوب اعتباره من فحول الرجال والعبقريين ، وانه ، مع كونه لم يعلم شيئا من شئون الامة التى ظهر بينها امره ولم يجد منها تشجيعا ولا مؤازرة على العمل ، قد سلكه مسلكا مبنيا على الحذق وحسن التدبير ورام به الاستيلاء على زمام الحكم اولا ثم الاحتفاظ به بعد ذلك

« وعلى اثر تنظيم الجيش والدونمة (اى الاسطول) بمعاونة جماعة من الفرنسيين من ضباط الجيش السابقين والمهندسين ، وبانوار عرفانهم وسعة مداركهم وقوة عارضتهم ، اقيمت معاهد التعليم العام والمدارس العالية وشيدت المستشفيات وسلم زمام ادارتها والخدمة فيها الى فريق من الفرنسيين . ومن ثم يرى ان الجيش وما يرتبط به من الفروع العديدة هما اللذان دفعا بمصر فى تيار حركة المدنية التى ما برحت تسوقها الى الامام حتى اليوم » (٣/٢٦٥)

هذا الرأى الصريح من اكبر مدافع عن محمد على فى القرن التاسع عشر يوضح بجلاء رأى كلوت بك فى محمد على . ان محمد على لم يكن رسولا من رسل الحضارة والعمران ، وانما رجل سياسة وحرب ، استهدف الاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها بدهاء السياسة وبقوة العسكرية وهما ما يسميه ماكيافللى مكر الثعلب وقوة الاسد ويقول انهما اخص صفات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« الامير » . وانما كان كل ما استحدثه محمد على فى مصر من ادوات الدولة الحديثة سواء فى باب التنظيم والادارة او فى باب العلوم والتكنولوجيا مجرد وسائل لخدمة مطامعه العسكرية . ان اخر ما كان محمد على يفكر فيه هو بناء « الانسان » على ارض مصر . ومن أجل هذا ما أن دالت دولة محمد على حتى زال الصرح العمرانى الكبير الذى شيده على الرمال ، وغاصت مصر من جديد فى ظلمات العصر الوسيط زمن عباس الاول، ظلمات لم يخترقها الا قبس من نور ذلك العقل الوضاء الذى اشتعل بلهب الحرية والتهب بحب الانسان ، عقل رفاعة رافع الطهطاوى ومدرسته

لم يكن محمد على اذن ، حتى بمنطق كلوت بك وبنص مقاله ، ذلك المستبد المستنير ، شأن بيزيستراتوس عاهل اثينا او الاسكندر ناشر حضارة اليونان على الامصار او يوليوس قيصر محضر برابرة الشمال بقيم الرومان او لويس الرابع عشر راعى الفنون والاداب ، او نابوليون محطم اغلال الاقطاع ومنظم قوانين المجتمع المدنى الجديد ، القائم على قيم الثورة البورجوازية الكبرى ، بل كان أشبه شيء بمملوك عظيم خرج من اطاره وتجاوز حجمه الطبيعى ، بل وليس يجمعه ببطرس الاكبر او اتاتورك او اى مستبد مستنير رغم ذكائه العملى الشديد الا صفة الاستبداد . أما الاستنارة فلا ..

شهد رفاعة الطهطاوى اثناء اقامته فى باريس ثورة الشعب الفرنسى عام ١٨٣٠ التى انتهت بعزل شارل العاشر اخر ملوك البوربون ، وتولية لويس فيليب ، دوق اورليان ملكا على الفرنسيين ، وسجل وقائع هذه الثورة واسبابها ونتائجها ، وكان اهم ماابرزه منها فى كتابه « تخليص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الابريز » هو مااجرته ثورة ١٨٣٠ من تعديلات على الدستور الفرنسى الرجعى ، دستور ١٨١٨ ، الذى وضعه لويس الثامن عشر بحيث صفته من كثير من مواده الرجعية وجعلته أوفى بأسس الديمقراطية . ولم يكتف الطهطاوى بالرصد والتسجيل بل عمد الى ترجمة نصوص دستور ١٨١٨ المعروف بالشرطة La Charte او « الميثاق » ، والى ترجمة مواد الدستور الجديد ، دستور ١٨٣١ ، والى تحليل التعديلات التى ادخلت على الدستور القديم وشرح معانيها واهدافها السياسية . وقد اورد هذه التحليلات فى الفصل الثالث : « عن تدبير الدولة الفرنساوية » (يقصد نظام الحكم فى فرنسا) وما تلاه من فصول ، وقد أوضح الطهطاوى هدفه من التعرض لنظام الحكم فى فرنسا وماطرأ عليه من تعديلات ثورية بقوله : « ولنكشف الغطاء عن تدبير الفرنساوية ، ونستوفى غالب احكامهم ، وليكون فى تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر » . فهو يقصد بذلك صراحة أن يضع امام المصريين نموذجا حيا لكفاح الشعوب فى سبيل الديمقراطية لعلهم يجدون فيه مثلا يحتذونه

وقد كان من اهم ما اثار حماسة رفاعة الطهطاوى هو مالاحظه من ان الدستور الفرنسى يقوم على نظرية فصل الدين عن الدولة ، فهو يقول فى « تخليص الابريز » :

« والكتاب المذكور الذى فيه هذا القانون يسمى الشرطة ، ومعناه فى اللغة اللاطينية ورقة ثم تسومح فيها ، فأطلقت على السجل المكتوب فيه الاحكام المقيدة ، فلنذكره لك ، وان كان غالب ما فيه ليس من كتاب الله تعالى ، ولا من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لنعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا ، والعدل اساس العمران »

وقارىء الجبرتي (٣/١١٧ وما يليها) يذكر كيف وقف الجبرتي كالمشدوه أمام ضمانات العدالة من ناحية اجراءات التحقيق في محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر التي اوردها الجبرتي بنصها « لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام اى حقوق الفرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لان الحقوق عند الافرنج مختلفة »

ويشرح رفاعة الطهطاوى للمصريين اسباب ثورة ١٨٣٠ في فرنسا ، ويصف لهم حالة الرأى العام بين الفرنسيين موضحا عقائدهم السياسية الاساسية ، وذلك في الفصل المسمى « في ذكر مقدمة يتوقف عليها ادراك علة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم » . قال :

« اعلم ان هذه الطائفة (يقصد الفرنسيين) متفرقة في الرأى الى فرقتين اصليتين ، وهما الملكية والحرية . والمراد بالملكية اتباع الملك القائلون بأنه ينبغي تسليم الامر لولى الامر ، من غير ان يعارض فيه من طرف الرعية بشيء . والاخرى تميل الى الحرية ، بمعنى انهم يقولون : لا ينبغي النظر الا الى القوانين فقط ، والملك انما هو منفذ للاحكام على طبق ما في القوانين ، فكانه عبارة عن آله . ولا شك أن الرأيين متباينان . فلذلك كان لا اتحاد بين اهل فرنسا ، لفقد الاتفاق في الرأى .. والملكية اكثرهم من القسوس واتباعهم ، واكثر الحريين من الفلاسفة والعلماء والحكماء واغلب الرعية .. فالفرقة الاولى تحاول اعانة الملك ، والاخرى ضعفه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واعانة الرعية .. ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد ان يكون الحكم بالكلية للرعية ولا حاجة لملك أصـــلا . ولكن لما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ، وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهذا هو حكم الجمهورية ، ويقال للكبار مشايخ (وللصـــغار) جمهور . (وهذا مثل مصر فى زمن حكم الهمامية ، فكانت امارة الصعيد جمهورية التزامية)

« (وشريعة الاسلام التى عليها مدار الحكومة الاسلامية مشوبة بالانواع الثلاثة المذكورة لمن تاملها وعرف مصادرها ومواردها) . فعلم من هذا أن بعض الفرنساوية يريد المملكة المطلقة ، وبعضهم يريد المملكة المقيدة بالعمـــل بما فى القوانين ، وبعضهم يريد الجمهورية . وقد سبق للفرنساوية انهم قاموا سنة ١٧٩٠ من الميلاد وحكموا على ملكهم وزوجته بالقتل ،ثم صنعوا جمهورية ،واخرجوا العائلة السلطانية المسماة البربون من باريس وأشـــهروهم مثل الاعداء ، ولا تزال الفتنة باقية الاثر »

فى هذا الوصف الدقيق والتحليل المحكم للاوضـــاع السياسية فى فرنسا ولحالة الراى العام فيهـــا نحـــو ١٨٣٠ لم ينقل رفاعة الطهطاوى للمثقفين المصريين صورة للمجتمع الفرنسى فحسب وانما القى عليهم أول دروس منظمة فى النظم والمذاهب السياسية والاجتماعية . لاول مرة تعلم المثقفون المصريون فى تاريخهم الحديث أن «الرعية» يمكن أن تتكتل حول مبادىء سياسية واقتصادية عامة ، ويمكن ان تنقسم الى احزاب متصارعة رايا وعملا حول هذه المبادىء السياسية والاقتصادية العامة . قصـــورة المجتمع المصرى يومئذ لم تكن تخـــرج عن أن مصر كانت « باشلكية » تابعة للسلطان العثمانى ويحكمها وال تركى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نائبا عن السلطان العثمانى ويديرهـــا مماليك شركس مفوضون من الحاكم التركى وولاء « الرعية » والمماليك والوالى جميعا للسلطان العثمانى ولاء غير مشروط بشرط لان السلطان لم يكن يمثل السلطة الزمنية وحدهـــا بوصفه سلطانا أو ملكابل كان يمثل السلطة الدينية كذلك بوصفه خليفة المسلمين . وفى كفاح مصر الســـياسي ضد الطغيان التركى المملوكى استطاع المصريون فى ثورة ١٧٩٥ ، عام « الحجة » التى استكتبوها للباشا التركى ولمراد بك وابراهيم بك ، وفى ثورة ١٨٠٤، عام خلع الباشا التركى وتنصيب الباشا الالبانى محمد على ، أن يرسوا اساسا هاما فى السياسة المصرية وهو ان سلطة الوالى وسلطة المماليك يمكن ان تقيد بقيود وان تعلـــق على شروط ، وهى الحكم بالعدل والكف عن المظالم واحتـرام اموال الناس والكف عن فـــرض الضرائب والمكوس الاستثنائية . وكان اقصى ما وصل اليه المصريون عـــام ١٨٠٤ فى كفاحهم السياسى هو ارساؤهم ذلك المبـــدأ الخطير وهو جواز عزل الوالى اذا حكم بالظلم فى الرعية مستندين فى ذلك الى حكم الشرع فى الحاكم الظالم ..

ولقد كان يمكن لهذا المبدأ الخطير ان يكون حجر الاساس فى الفقة الدستورى المصرى لولا انه كان مشـــوبا بفكرة الفصل بين ذات السلطان وذات ولاته وحكامه فى الامصار .. أما ذات السلطان فقد كانت وظلت مصـــونة لا تمس بحكم انه كان الخليفة وفيه تمثلت السلطة الدينيـــة الى جانب السلطة الدنيوية . واما ذات الولاة والحكام فقد كانت خاضعة للمسئولية ونتائجها لأنهم كانوا فى عرف ذلك الزمان ممثلين للسلطة الدنيوية وحدها ، أو ما الف المفكرون ان يسموه « بالسلطة الزمنية » . وقد ظـــل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الوضع شائعا فى أوربا نفسها طالما كانت فلسفة الحكم الشائعة فيها هى نظرية حق الملوك الالهى ، فلما عصفت ثورة كرومويل فى انجلترا «١٦٤٠ ـ ١٦٤٥ » والثورة الفرنسية « ١٧٨٩ » بهذا الحق الالهى تبلورت فلسفتان جديدتان الى جانب فلسفة الملكية المطلقة وهما فلسفة الملكية المقيدة من ناحية وفلسفة الجمهورية التى لا مكان فيها لملوك او سلاطين من ناحية اخرى . وهذا بالضبط ماعلمه رفاعة الطهطاوى لجيله منذ مائة وخمسين عاما . قال لهم باختصار : فى هذه البلاد ينقسم الناس الى اقلية هم الملكيون المؤمنون بالملكية المطلقة و « اكثرهم من القسوس واتباعهم » اى من رجال الكنيسة والمواطنين الخاضعين لنفوذ الكهنوت ، والى اغلبية وهم الاحرار « الحريون » او من يسمون فى تاريخ الفكر السياسى بالليبراليين وهؤلاء اما من انصار الملكية المقيدة التى تتوج القانون مكان الملك وتجعل من الملك مجرد « بصمجى » كما نقول أو « آلة » تطبق القوانين كما يقول رفاعة الطهطاوى او مجرد رمز «يملك ولايحكم» كما يقول الانجليز ، واما من انصار الجمهورية الذين لا يرون « حاجة للملك أصلا » ، ويطالبون بسيادة الشعب على نفسه من خلال وكلائه المنتخبين سواء فى مجلس الشيوخ او فى مجلس النواب ، واكثر الاحرار من قادة الفكر والمثقفين واغلب ابناء الشعب . فالاحرار المعتدلون من انصار الملكية المقيدة اذن كانوا ينادون بان الملك فوق القانون لانه يملك ولا يحكم واما المحافظون المتطرفون من انصار الملكية المطلقة فقد كانوا ينادون بأن الملك يملك بموجب حق الملوك الالهى فهو ظل الله على الارض وفيه تمثلت الارادة الالهية التى تسير البشر وفيه تجسدت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشريعة السماوية التى بها تصرف أمور البشر . وهذا معنى قول رفاعة الطهطاوى ان انصار الملكية المطلقة هم رجال الكهنوت وكل من خضع لنفوذهم وقال بأن المسيحية « دين ودنيا »

الجديد والخطير اذن فى هذا الكلام لم يكن انه مهد الطريق لاعادة النظر فى مبدأ الولاء لمحمد على ، فمحمد على رغم جسامة حجمه ، لم يخرج عن كونه واليا من ولاة مصر ، وسلطة محمد على لم تتجاوز فى يوم من الايام أن تكون سلطة زمنية دنيوية ، وعزله اذن كان جائزا اذا توفرت الارادة والقدرة على عزله . وانما الجديد والخطير فى هذا الكلام أنه مهد الطريق للتخلص من الولاء لسلطان تركيا الذى وضعته الخلافة فى موضع العصمة عند المصريين وعند كافة ابناء العالم الاسلامى ، حتى ان محمد على وهو فى اوج انتصاره لم يجترىء على سحب ولائه الرسمى او انكار تبعيته الشكلية له . وقد بلغ من هيلمانه الدينى رغم ضعف شوكته الزمنية امام مماليك مصر ، من على بك الكبير الى مراد بك ، ان بونابرت نفسه حين جاء الى مصر بحملته الفرنسية ، ادعى امام المصريين انه صديق السلطان المدافع عن حقوقه ، وانه ما اتى الا لتأديب المماليك ، ولم ينتقض عليه صراحة الا حين انضم الباب العالى الى المماليك والانجليز فى مقاومة بونابرت عسكريا . هذا هو المعنى الخطير فى كلام الطهطاوى : الولاء لسلطان تركيا ليس قدرا على المصريين، فغيرهم من الامم المتحضرة وقد وجد سبيله الى الحرية برفع نير ملوكهم عن كواهلهم . وهذا معنى قول الطهطاوى: « وقد سبق للفرنساوية أنهم قاموا سنة ١٧٩٠ من الميلاد وحكموا على ملكهم وزوجته بالقتل ، ثم صنعوا جمهورية،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأخرجوا العائلة السلطانية المسماة البربون من باريس وأشهروهم مثل الاعداء ، ولا تزال الفتنة باقية الاثر »

ان الطهطاوى لم يكن يدعو المصريين الى التخلص من نير محمد على ، فكتابات الطهطاوى تدل على انه كان شديد الاعجاب بشخصية المصلح فى محمد على ، بل كان يوحى الى المصريين والى محمد على نفسه بالتخلص من نير السلطان العثمانى . وهو حين يتحدث عن النظم الثلاثة : نظام الملكية المطلقة ونظام الملكية المقيدة ونظام الجمهورية ، يقول : « وشريعة الاسلام التى عليها مدار الحكومة الاسلامية مشوبة بالانواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها وموارداها » . بعبارة اخرى هو يقول للمصريين : فى استطاعتكم ان تشقوا عصا الطاعة على الخليفة العثمانى دون ان يغض ذلك من اسلامكم ؛ بل اكثر من هذا ، ففى استطاعتكم ان تقيموا جمهورية مستقلة عن تركيا برياسة محمد على او غير محمد على ، دون أن يغض ذلك من اسلامكم ، ولا شك أن هذا كان بمثابة رد على الرأى العام التقليدى وقياداته من المثقفين المصريين المحافظين الذين كانوا يومئذ يجدون غضاضة فى الثورة على الخليفة العثمانى ، وقد كانوا بالفعل يضعون العراقيل لهذا السبب فى طريق محمد على حين تمرد على سلطان تركيا . أما رفاعة الطهطاوى فقد كان طريقه غير هذا الطريق . لم يكن طريقه التماس حق الثورة فى الشريعة لاثبات شرعية أو وجوب الخروج عن طاعة الخليفة العثمانى ، وانما كان طريقه تحقيق استقلال مصر بفصل الدين عن الدولة . وهذا معنى قوله : « فلنقل ان أحكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية ، وانما هى مأخوذة من قوانين اخرى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غالبها سياسى ، وهى مخالفة بالكلية للشرائع وليست قارة الفروع ، ويقال لها : الحقوق الفرنساوية ، اى حقوق الفرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لان الحقوق عند الافرنج مختلفة » . هو اذن يريد ان يحرر المصريين بموجب حقوق الانسان وليس بموجب سنن السلف الصالح . ثم ترتفع نبرته العقلانية فيكاد يحض الناس حضا على العقلانية أساسا للعدل ولحضارة الانسان . ان العدل والحضارة مترابطان ، فالعدل سبيل الحضارة .

وقيم الدين جوهرها العدل ، ولكن العقل أيضا يمكن أن يؤدى الى العدل ، ومن ثم الحضارة . فهو يقول فى دستور ١٨١٨ المعروف فى فرنسا « بالشرطة » أى الميثاق ، ان غالب ما فيه ليس من تعاليم الدين ولكنه من املاء العقل : لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير المماليك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما ابدا ، والعدل اساس العمران » . وهو شبيه بتأملات الجبرتى حينما وقف مشدوها أمام عدالة القانون الفرنسى فى محاكمة سليمان الحلبى فقد أذهله توفر هذه العدالة فى قوم عقلانيين لا دين لهم ، وقد كان الفرنسيون يتباهون بهذه العقلانية أيام الثورة الفرنسية حتى نهاية حكم نابليون بسبب مؤازرة الكنيسة لحكم البوربون وتأييدها حق الملوك الالهى . وقد بلغ مد العقلانية والثورة على الكهنوت اقصى مداه حين توج هيبير « العقل » فى كاتدرائية نوتردام ، ثم عزل روبسبير « العقل » وتوج مكانه « الكائن الاسمى » .

فالقضية اذن كما طرحها رفاعة الطهطاوى خلاصتها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كالاتى : كل نظم الحكم السائدة فى أوروبا من الملكية المطلقة الى الملكية المقيدة الى الجمهورية لها سند فى الشريعة الاسلامية . فليعلم المصريون ـ والعرب بعامة ـ اذن أن خروجهم عن طاعة السلطان العثمانى لا يفض من اسلامهم فى شىء . وهو قد وجد بدراسته للمجتمعات الاوروبية ، ولا سيما للمجتمع الفرنسى أن رجال الكهنوت وأتباعهم هم الذين كانوا يوطدون لحق الملوك الالهى بين مواطنيهم ، وهو ما يجافى العدالة والمدنية ، وقد وجد الاوروبيون الحل فى نظرية فصل الدين عن الدولة واقامة الدساتير والقوانين الوضعية النابعة من العقل ومن احتياجات المجتمع ومن الفلسفات السياسية والاجتماعية الزمنية القائمة على ما يسمى بحقوق الانسان فكانوا بذلك أقرب الى تحقيق العدالة والى نشر المدنية بين دعاة الثيوقراطية وحق الملوك الالهى

وبعد أن شرح رفاعة الطهطاوى للمثقفين المصريين نظم الحكم الثلاثة التى كانت تتصارع من أجلها الجماهير والقيادات السياسية فى فرنسا فى زمن شارل العاشر نحو ١٨٣٠ ، وبعد أن حلل لهم الفلسفات الاجتماعية المختلفة التى كان يستند اليها كل نظام من هذه النظم الثلاثة : الملكية المطلقة والملكية المقيدة والجمهورية ، تعرض لشرح الأزمة الدستورية التى أفضت الى عزل شارل العاشر واعلان لويس فيليب ملكا على الفرنسيين . قال الطهطاوى فى « تخليص الابريز » :

(١) « وقد قلنا فيما سبق أن ديوان رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية (يقصد مجلس النواب) يجتمعون كل سنة للمشورة العمومية . فلما اجتمع هذا الديوان عرضوا على الملك أن يعزل هذا الوزير (يقصد بولنياك ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن معه من الوزراء الستة ، فلم يصغ لكلامهم أصلا . وقد جرت العادة أن ديوان المشورة يعمل فيه جميع الاشياء بمقالة اكثر أربابه (يقصد يقرر فيه كل شيء بحسب رأى الاغلبية) ، وكان المجتمع من هذا الديوان للمشورة فى قضية الوزراء أربعمائة وثلاثون نفسا ، منها ثلثمائة لا يرضون بابقاء الوزراء ، ومنهم مائة وثلاثون يحبون ابقاءهم ، فكان العدد الاكثر عليهم ، والعدد الأقل لهم ، فتيقنوا عزلهم . وكان الملك يحب ابقاءهم لاستعانته بهم على تنفيذ ما أضمره فى نفسه فأبقاهم ، ثم حرم القانون (يقصد عطل الدستور) بعدة أوامر ملكية ، فكانت عاقبتها خروجهم واخراجهم له من بلادهم معزولا »

(٢) « وقد سبق لنا من القوانين السالفة فى الكلام على حقوق الفرنساوية فى المادة الثامنة انه لا يمنع انسان فى فرنسا من أن يظهر رأيه ويكتبه ويطبعه ، بشرط أن لا يضر ما فى القوانين ، فان أضر به أزيل (يقصد صودر اذا خالف القانون) . فلما كانت سنة ١٨٣٠ ، واذا بالملك قد أظهر (يقصد أصدر) عدة أوامر ، منها : النهى عن أن يظهر الانسان رأيه ، وان يكتبه أو يطبعه بشروط معينة ، خصوصا للكازيتات اليومية (يقصد الجرائد اليومية) ، فانه لا بد فى طبعها من أن يطلع عليها أحدا من طرف الدولة (يقصد الرقيب) ، فلا يظهر منها الا ما يريد اظهاره ، ومع ان ذلك ليس حق الملك وحده (يقصد ليس من سلطة الملك وحده) ـ فكان لا يمكن عمله الا بقانون ، والقانون لا يصنع الا باجتماع آراء ثلاثة : رأى الملك ورأى ديوانى المشورة ، يعنى ديوان البير (يقصد مجلس الشيوخ) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وديوان رسل العمالات (يقصد مجلس النـــواب) . فصنع وحده ما لا ينفذ الا اذا كان صنعه مع غيره . وغير أيضا فى هذه الاوامر شيئا فى مجمع اختيار رسل العمالات ليبعثوها فى باريس (يقصد ان الملك عدل قانون الانتخاب) ، وفتح ديوان العمالات قبل أن يجتمع ، مع انه كان من حقه الا يفتحه الا بعد اجتماعهم كما فعله فى المرة السابقة (يقصد ان الملك عقد البرلمان قبل الموعد المحدد لانعقاده) . وهذا كله على خلاف القوانين . ثم ان الملك لما أظهر كل هذه الاوامر ، كأنه أحس فى نفســه بحصول مخالفة ، فأعطى المناصب العسكرية لعدة رؤساء مشهورين بأنهم أعداء الحرية ، التى هى مقصد الرعية الفرنساوية . وقد ظهرت هذه الاوامر بغتة حتى ظهر ان الفرنساوية كانوا غير مستعدين لها . وبمجرد حصول هذه الاوامر قال غالب العارفين بالسياسات : انه يحصل فى المدينة محنة عظيمة (يقصد ثورة عظيمة) يترتب عليها ما يترتب ، كما قال الشاعر :

أرى بين الرمــاد وميض نار
ويوشــك أن يكون له ضرام

فان النـــار بالعيــدان تزكو
وان الحرب أولهـــا الكلام

« ... وقامت انفس الناس على ملكهم ، لاعتقادهم انه أمر بالقتال . فما مررت بهذا الوقت بحارة الا وسمعت فيها : السلاح ! السلاح ! أدام الله الشرطة (يقصــد يعيش الميثاق أو الدستور) ، وقطع دابر الملك ! (يقصد وليسقط الملك) فمن هذا الوقت كثر سفك الدماء ، وأخذت الرعية الاسلحة من السيوفية بشراء أو غصب . الخ .. »

هذه هى ثورة ١٨٣٠ التى عاشها رفاعة الطهطاوى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يوما بيوم ومسه منها لهيب أشعل قلبه وأضاء عقله وعلمه أن الحرية جوهر مرادف لانسانية الانسان . وفى هذا الوصف المثير صور رفاعة الطهطاوى كيف استولى الشعب فى باريس على الاوتيل دى فيل ، وهى دار البلدية ، وكيف خرج الحرس الوطنى للدفاع عن الشعب، وكيف رفع الفرنسيون من جديد التريكولور أى العلم المثلث الالوان على الكنائس ، والمبانى العامة ، وهو علم الثورة الفرنسية الذى كانت الملكية قد ألغته بعد سقوط نابليون وعودة الحكم الى البوربون) وكيف انضم الجيش الى الثوار ، وكيف انتهى الامر بعزل شارل العاشر وطرد ولى العهد الى انجلترا ، وبتولى لافاييت رياسة الحكومة المؤقتة وبدعوة لويس فيليب ، دوق أورليان ، ليكون وصيا على العرش ثم اعلانه «ملكا على الفرنسيين» بعد أن أقسم يمين الولاء للدستور

فأسباب ثورة ١٨٣٠ كما شرحها رفاعة الطهطاوى لمثقفى جيله تتلخص فى شيء واحد وهو الاوتوقراطية أو الحكم المطلق . وقد تجلت أوتوقراطية شارل العاشر فى خرقه دستور سنة ١٨١٨ مرتين : مرة بتمسكه بوزارة بولينياك التى أقالتها الاغلبية البرلمانية ولجوئه الى أصدار سلسلة من القوانين غير الدستورية دون رجوع الى البرلمان ، وأمره بفرض الرقابة على المطبوعات وبمصادرة حرية الصحافة وحرية التعبير بوجه عام .

وقد أورد رفاعة الطهطاوى فى « تخليص الابريز » نص اليمين الدستورية التى حلفها دوق أورليان قبل اعلانه « ملك الفرنسيين » : وهذا نص اليمين :

« رضيت من غير شرط ولا تعليق بجميع الشروط المذكورة فى الخلاصة ، وبتلقيبى ملك الفرنسيس الذى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعطيتموه لي ، وها أنا حاضر مستعد للحلف والمبايعة على اني احفظ ذلك . ثم قام الملك مكشوف الراس ورفع يده اليمنى وشرع يقول هذه الصيغة المترجمة : أشهد الله سبحانه وتعالى على أن احفظ مع الامانة الشرطة المتضمنة لقوانين المملكة ، مع ما اشتملت عليه من الاصلاح الجديد المذكور في الخلاصة ، وعلى اني لا أحكم الا بالقوانين المسطورة وعلى طريقها ، وأن أعطى كل ذى حق حقه بما هو ثابت في القوانين ، وأن أعمل دائما على حسب ما تقتضيه مصلحة الرعية الفرنساوية وسعادتها وفخرها »

لقد أزيلت من « الشرطة » أو الدستور الفرنسي كافة النصوص التي تضع الملك فوق الدستور ، واذا كان دستور ١٨٣٠ قد أكد سيادة الشعب فان اليمين الدستورية لا تخرج عن كونها تأكيدا لمعنى واحد وهو أن الأمة هي مصدر السلطات وان الدستور فوق الملك .

فالملك يستمد صفته الملكية لا بالحق الالهي ولا بحق الوراثة ولكن باختيار الشعب وهذا معنى اعلان لويس فيليب بانه رضي دون قيد أو شرط بتقلد لقبه الجديد « ملك الفرنسيس الذى أعطيتموه لى » . وقد فسر رفاعة الطهطاوى معنى هذا التغيير الثورى الذى أدخلته ثورة ١٨٣٠ على دستور ١٨١٨ بقوله : « وأن يلقب بملك الفرنساوية ، لا بملك فرنسا ، والفرق بينهما ان ملك الفرنساوية معناه كبير على نفس الاشخاص بجعلهم له ملكا (يقصد انه ينقل السيادة الى المواطنين الذين أصبح بيدهم أن يختاروا ملوكهم) ، بخلاف ملك فرنسا ، فان معناه ان أرض فرنسا ما دامت باقية فهو سيدها وملكها ، ولا منازع له من اهل البلاد فيها » . باختصار :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملكية الوراثية تجعل من البلاد أشبه شيء بضيعة خاصة يملكها الملك ، وأما الملكية المنتخبة فهي تقيم الملك بارادة شعبية ، فهي أشبه شيء بجمهورية رياسية مدى الحياة او هي مرحلة متوسطة بين الملكية والجمهورية في عرف الفقه الدستوري . أو بلغة رفاعة الطهطاوي : « وسبب ذلك أن الملوك السابقين كانوا يلقبون ملك فرنسا . وكان اذا كتب الواحد منهم يقول ما صورته : (أنا فلان بفضل الله تعالى ملك فرنسا ونوار (يقصد نافار) .. قد أمرنا ونأمر بما سيأتي هنا ..) وأما ملك الفرنساوية فانه يقول في كتابته : (أنا فلان ملك الفرنساوية .. قد أمرنا ونأمر) . ففرق بين عبارة الاول والثاني : فان الاول جعل نفسه ملك مجموع فرنسا ونوار بانعام الله سبحانه وتعالى عليه ، ولقد تحاشى عن أن يقول ذلك لارضاء الفرنساوية ، فانهم يقولون أن ملك الفرنسيس بارادة ملته (يقصد أمته أو شعبه) وتمليكهم له ، لا ان هذه خصوصية خص الله سبحانه وتعالى بها عائلته ، من غير أن يكون لرعيته مدخلية . فظهر من هذا قوله : بفضل الله ، معناه عندهم باستحقاقه لذلك بولادته ونسبه ، كما أن قوله ملك فرنسا معناه صاحب الارض والسلطنة عليها . والا فلو كانت عندنا لاستوت العبارتان : فان كون الملك ملكا باختيار رعيته له لا ينافي كون هذا صدر من الله تعالى على سبيل التفضل والاحسان . ولا فرق عندنا مثلا بين ملك العجم وملك ارض العجم » . بمعنى آخر ان كل ملكية وراثية تتضمن في فهم الاوروبيين درجة من درجات حق الملوك الالهي مهما اتخذت الصورة الوضعية أو بدا انها تلزم الملك بارادة شعبه ، لان من ولاه الله لا يعزله الا الله في عرفهم . أما عندنا فلا تعارض بين المبدأين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأيا كان الامر فقد طرح رفاعة الطهطاوى على مثقفى جيله لاول مرة فى تاريخ الفكر السياسى والاجتماعى فى مصر قضية الحق الالهى والحق الطبيعى كما يسمونها فى الفكر الاوروبى وصور لهم الصراعات الدامية التى اكتنفت تاريخ هذه القضية بغية الوصول الى حل لها

لقد ترجم رفاعة الطهطاوى فى « تخليص الابريز » نص دستور ١٨١٨ «الشرطة» أو «الميثاق» او «الاشارت» كما كان يسميه الفرنسيون) كما ترجم نصوص المواد المعدلة التى أدخلتها عليه ثورة ١٨٣٠ لاصلاحه ، وهى ما أشار اليه لويس فيليب عند حلفانه اليمين الدستورية بقوله انه يقسم على أن يحترم « الشرطة » « مع ما اشتملت عليه من الاصلاح الجديد المذكور فى الخلاصة » . فقدم لمواطنيه بحثا رائعا فى تطور الفكر السياسى والاجتماعى . وقال الطهطاوى فى « تخليص الابريز » معلقا على مواد الدستور :

« ثم ان هذه الشرطة قد حصل فيها تغيير وتبديل منذ الفتنة الاخيرة الحاصلة فى سنة احدى وثلاثين وثمانمائة والف ، بتاريخ الميلاد ، فراجعها فى باب (قيامة الفرنساوية وطلبهم للحرية والمساواة) انتهى . فاذا تاملت رأيت أغلب ما فى هذه الشرطة نفيسا ، وعلى كل حال فأمره نافذ عند الفرنساوية ، ولنذكر هنا بعض الملاحظات فنقول :

« قوله فى المادة الاولى : سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة (يقصد أمام القانون) ، معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى أجراء الاحكام المذكورة فى القانون ، حتى أن الدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره . فانظر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى هذه المادة الاولى ، فانها لها تسلط (يقصد اثر) عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير بانه كالعظيم نظرا الى اجراء الاحكام

« ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية ، وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية وتقـــــدمهم فى الاداب الحضرية

« وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه ، هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف . وذلك لان معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوى فى الاحكام والقوانين ، بحيث لا يجور الحاكم على انسان ، بل القوانين هى المحـكمة والمعتبرة »

« وأما المادة الثانية (سائر الفرنســـاوية يعطون من اموالهم بغير امتياز شيئا معينا لبيت المال ، كل انسان حسب ثروته) فهى محض سياسة ، ويمكن أن يقـــال ان الفرد (يقصد الضرائب) ونحوها لو كانت مرتبة فى بلاد الاسلام كما هى فى تلك البـــلاد لطابت النفس ، خصوصا اذا كانت الزكوات والفيء والغنيمة لا تفى بحاجة بيت المال ، أو كانت ممنوعة بالكلية وربما كان لها أصل فى الشريعة على بعض أقوال مذهب الامام الاعظم . ومن الحكم المقررة عند قدماء الحـــكماء : الخراج عمود الملك ...

« وأما المادة الثالثة (كل واحـــد متأهل لأخـــذ أى منصب كان وأى رتبة كانت) ، فلا ضرر فيها أبدا ، بل من مزاياها أنها تحمل كل انسان على تعهد تعليمه ، حتى يقرب من منصب أعلى من منصبه ، وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة مثل أهل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصين والهند ، ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ويبقى للشخص دائما حرفة أبيه

« وقد ذكر بعض المؤرخين ان مصر فى سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فان شريعة قدماء القبطة (يقصد قدماء المصريين) كانت تعين لكل انسان صنعته ، ثم يجعلونها متوارثة عنه لاولاده . قيل سبب ذلك أن جميع الصنايع والحرف كانت عندهم شريفة ، فكانت هذه العادة عندهم من مقتضيات الاحوال لانها تعين كثيرا على بلوغ درجة الكمال فى الصنائع .

« ويرد عليه أنه ليس فى كل انسان قابلية لتعلم صنعة أبيه ، فقصره عليها ربما جعل الصغير خائبا فى هذه الصنعة ، والحال انه لو اشتغل بغيرها لصلح حاله وبلغ آماله »

« وأما المادة الرابعة والخامسة ... (الرابعة : ذات كل واحد من الفرنساوية مستقل بها ، ويضمن له حريتها ، فلا يتعرض له انسان الا ببعض حقوق مذكورة فى الشريعة (يقصد الا وفقا لاحكام القانون) : وبالصورة المعينة التى يطلبه بها الحاكم . الخامسة : كل انسان فى بلاد الفرنسيس يتبع دينه كما يجب لا يشاركه أحد فى ذلك ، بل يعان على ذلك ويمنع من يتعرض له فى عباداته) فانها نافعة لاهل البلاد والغرباء فلذلك كثر اهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء »

أما بالنسبة للمادة السادسة من دستور ١٨١٨ القائلة: « يشترط أن تكون الدولة على الملة القاثوليقية الحوارية الرومانية» ، وبالنسبة للمادة السابعة فيه القائلة: «تصير كنائس القاثوليقية وغيرهم من النصرانية يدفع له شى من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيت مال النصرانية ، ولا يخرج منه شيء لتعمير معابد غير هذا الدين » ، فقد أوضح الطهطاوى فى الفصل المسمى « خلاصة حقوق الفرنساوية الان بعد ١٨٣١ من الميلاد وتصليح الشرطة » ان من التعديلات التى جرت على دستور ١٨١٨ الغاء النص القائل بأن دين الدولة هو المسيحية وتحريم وقف شيء على الكنائس أو اعطاء هبة لها الا باذن صريح من الدولة . كذلك أوضح الطهطاوى ان من أهم التعديلات التى أدخلتها ثورة ١٨٣٠ على دستور ١٨١٨ النص على عدم جواز عزل القضاة وعلى علانية المحاكمات وعلى حق أى مواطن فى الشكوى لاعضاء البرلمان وحقه فى تقديم الاقتراحات اليهم . كذلك من أهم التعديلات التى أدخلتها ثورة ١٨٣٠ على دستور ١٨١٨ نص واضح يؤكد ضمان الحرية الشخصية وينص على معاقبة من يقبض على أى انسان الا وفقا لاحكام القانون معاقبة صارمة . وكذلك أضيف نص « بمعاقبة » كل من يتعرض لعابد فى عبادته بدلا من النص القديم الغامض القائل بأن من واجب الدولة اعانة الناس على اقامة عباداتهم فى حرية و « منع » من يتعرض لهم . وكذلك أضيفت مواد خاصة بتنظيم الخدمة العسكرية ومواد بتنظيم مجلسى البرلمان ومواد تنص على سرية الانتخابات وغير ذلك من النصوص التى تعمق فلسفة الديمقراطية وتوسيع قاعدتها

أما بالنسبة للمادة الثامنة من دستور ١٨١٨ (ومنطوقها) : «لا يمنع انسان فى فرنسا أن يظهر رأيه وان يكتبه ويطبعه بشرط ان لا يضر ما فى القانون ، فاذا اضر أزيل ») فقد علق عليها الطهطاوى بقوله :

« فانها تقوى كل انسان على ان يظهر رأيه وعلمه وسائر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما يخطر بباله مما لا يضر غيره . فيعلم الانسان سائر ما فى نفس صاحبه ، خصوصا الورقات اليومية المسماة بالجورنالات والكازيطات ، الاولى جمع جورنال والثانيه جمع كازيطة . فان الانسان يعرف منها سائر الاخبار المتجددة ، سواء كانت داخلية أو خارجية ، أى داخل المملكة أو خارجها . وان كان قد يوجد فيها من الكذب مالا يحصى ، الا انها قد تتضمن أخبارا تشوق نفس الانسان الى العلم بها ، على انها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق ، او تنبيهات مفيدة او نصائح نافعة سواء كانت صادرة من الجليل او الحقير ، لانه قد يخطر ببال الحقير مالا يخطر ببال العظيم

« ومن فوائدها ان الانسان اذا فعل فعلا عظيما أو رديئا وكان من الامور المهمة كتبه أهل الجورنال ليكون معلوما للخاص والعام لترغيب صاحب العمل الطيب وردع صاحب الفعلة الخبيثة . وكذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان ، كتب مظلمته فى هذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص والعام ، فيعرف قصة المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الامر عبرة لمن يعتبر »

هذا عرض موجز لاهم ما كتبه الطهطاوى ، أبو الديمقراطية المصرية فى كتابه الخطير « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » أيام ان كان المصريون لا يعرفون شيئا عن أسس الديمقراطية او حقوق الانسان غير بعض ذكرياتهم البعيدة عن دعاوى بونابرت التى تداخل فيها ختل الغازى باحلام الثائر عن الحرية والمساواة والاخاء على ارض مصر، وغير ذكرياتهم البعيدة عن تجربتهم البرلمانية المبتورة فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زمن الحملة الفرنسية ، وقد كانت غصة فى حلق الفرنسيين والمصريين على السواء . ثم جمع محمد على كل الاعنة فى يديه قرابة ثلث قرن واقام حكمه الاوتوقراطى المطلق الذى لا مكان فيه لشعب ولا دستور ، ولا مجال فيه لشورى ولا لحقوق . ولا شك ان تمرد محمد على على ولاية السلطان العثمانى الحاكم بحق الملوك الالهى قد جعلت منه فى نظر رفاعة الطهطاوى عاهلا شـــــبيها بلويس فيليب « ملك الفرنسيين » يحكم بالحق الطبيعى ، وقد كانت هناك بالفعل مودة عظيمة بين الرجلين ، ولكن هذا اللغم الخطير الذى بثه رفاعة الطهطاوى تحت عرش محمد على كان فى الوقت نفسه الاساس الاول والاكبر لمناقشة شرعيته وشرعيـــة ذريته كحاكم مطلق لا تربطه او تربطهم بالشعب المصرى مواثيق ولا دساتير . فكأنى به يقول للمصريين اجل ان محمد على يحكم حقا بالحق الطبيعى ولكنه حق السيف والمال ، أو كما يقول القدماء سيف المعز وذهبه ، ويفرض الولاء بالاكراه او يشتريه بالثمن . وقد كان اجدر به أن يجعل سلطانه على قلوب الرعية الا على أجسادهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ ـ من الليبرالية الى الراديكالية

بعد « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » الذى صدر عام ١٨٣٤ ، كان أهم كتاب وضعه رفاعة الطهطاوى فى تحليل النظم والمذاهب هو كتابه الخطير « مناهج الالباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية » الذى صدر عام ١٨٦٩ . وخطورة « مناهج الالباب » ناشئة من ان هذا الكتاب يعد استكمالا للنظريات السياسية والاجتماعية التى كان رفاعة الطهطاوى قد طرحها فى صدر حياته ايام « تخليص الابريز » ، وهو ليس مجرد استكمال بل هو تطوير وتعديل ومراجعة : استكمال لبحث رفاعة الطهطاوى عن الديمقراطية وحكم الشعب ، وتعديل لنظرياته فى الحرية وسيادة القانون ، ومراجعة لافكاره الاساسية عن العدالة السياسية ، على ضوء الثورة الراديكالية الكبرى التى اجتاحت اوروبا طوال القرن التاسع عشر وجعلت من الديمقراطية والحرية والقانون والعدالة وحقوق الانسان لا مجرد اشكال سياسية فارغة بل نظما لها مضمون اجتماعى واقتصادى المعالم ، وجنحت بالفكر البورجوازى الثورى من مجرد تقديس الحريات الليبرالية الى اعتبارها ضمانات لتحقيق غايات لا تقل عنها قداسة وهى التقريب الفعلى بين البشر فى فرص الحياة وفى فرص التقدم والنمو وفى المشاركة فى خيرات العمل والطبيعة . باختصار : نما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكر رفاعة الطهطاوى كما نما الفكر البورجوازى الثورى الاوربى من الفكرة الديموقراطية الى الفكرة الاشتراكية ، أو على الاصح وقف مثله فى تلك المرحلة المتوسطة بين الديموقراطية والاشتراكية التى عرفت فى ثورات أوروبا المتعاقبة ، ثورة ١٨٣٠ وثورة ١٨٤٨ وثورة ١٨٧٠ بالراديكالية ، أو حركة الاصلاح الجذرى

اذا كان « تخليص الابريز » بمثابة حجر الاساس فى الفكر السياسى والاجتماعى المصرى إبان القرن التاسع عشر ، فان « مناهج الالباب المصرية من مباهج الآداب العصرية » هو بمثابة البناء العلوى الذى قامت عليه حركة الفكر المصرى فى تلك الفترة وما بعدها

ويمكن أن نقول ان « مناهج الالباب » هو أول كتاب ظهر فى البلاد فى الفكر السياسى والاقتصادى المصرى نظريا وتطبيقيا ، فهو كتاب فى الاقتصاد السياسى أو فى الاقتصاد والسياسة ويشتمل كذلك على فصول تاريخية دعت الضرورة الى ادماجها لتوضيح الفلسفة الاجتماعية التى كان رفاعة الطهطاوى يعتنقها ويدعو اليها . واذا كان « تخليص الآبريز » فى أساسه كتابا عن الحضارة الفرنسية بقلم مفكر كان يعتقد أن بعث مصر لا طريق اليه الا الاخذ بأهم مقومات الحضارة الثورية الاوروبية فى زمنه ، فان « مناهج الالباب » فى أساسه محاولة مصرية لبناء المجتمع المصرى على أسس الديموقراطية البورجوازية التى كان رفاعة الطهطاوى يؤمن بها مع جنوح شديد الى اليسار الليبرالى أو الى اليمين البروليتارى أى الى الراديكالية . ولا شك أن قارىء «مناهج الالباب» يحس أن عشرات السنين من الاضطهاد والتشريد قد خففت من ثورية رفاعة الطهطاوى ومن ليبراليته « السياسية » التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت تتفجر في « تخليص الابريز » ، ولكن « منـــاهج الالباب » برغم ذلك كان محـــاولة لتطوير أهم مبـــادىء الفلسفة البورجوازية التى استجدت فى مصر مع الحملة الفرنسية ثم أقام محمد على أركانها ثم انهارت بعد نكسة ١٨٤٠ نحو ربع قرن كامل حتى بدأ الجو يتهيأ لاحيائهـا بعد تولى اسماعيل عام ١٨٦٣ . وقد كان هذا التطـــوير نحو الراديكالية، أو عدم الاكتفاء بالديموقراطية السياسية والالتفات الشديد الى الديموقراطية الاقتصادية . بل ان « مناهج الالباب » يعد تقدما من بعض الوجوه على « تخليص الابريز » من حيث أنه تصدى لمشكلة تصـــفية الاقطاع اقتصاديا بينما اقتصر « تخليص الابريز » على مناجـــزة الاقطاع كنظام سياسى أولا وقبل كل شىء

أما الافكار السياسية التى بشر بها رفاعة الطهطاوى فى « مناهج الالباب » فيمكن تلخيصها فيما يلى :

أولا : تثبيت فكرة القومية المصرية

ثانيا : تثبيت فكرة الدولة الزمنية أو العلمانية

ثالثا : تثبيت مقومات المجتمع البورجوازى «التقدمى» سياسيا واقتصاديا

أما تثبيت فكرة القـــومية المصرية ، فقـــد رأينا فى « تخليص الابريز » كيف أن رفاعة الطهطاوى اهتم بابراز معنيين هامين :

امجاد مصر القديمة وحضارتها الشاهقة فى العـــلوم والفنون والآداب منوها بآثار الفراعنة ودلالتها التاريخية ثم التشابه القوى بين العرب الاوائل والفرنسيين فى أهم الفضائل الاجتماعية والفردية كالعدالة وحب الحـــرية والشجاعة فى الحق ، حتى فى احتـــرام حـــرية المرأة وحقوقها . ولعل من أخطر الفقرات فى « تخليص الابريز »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قول الطهطاوى في نهـــاية رحلته ملخصـــا موقفه من الحضارات المختلفة :

« هذا حاصل ما كان لخصـــته ، حسب الامكان ، فلم يبق علينا الا ذكر خلاصة هذه الرحلة ، وما دققت فيـــه النظر وأمعنت فيه الفكر ، فأقول : ظهر لى بعد التأمل فى آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شبها بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الاجناس ، وأقوى مظنة القرب بأمور كالعرض والحرية والافتخار ، ويســـمون العرض شرفا ، ويقسمون به عند المهمات ، واذا عاهدوا عليه وفوا بعهودهم ، الخ .. »

ولا شك أن المحـاولات المتـكررة لسـلخ مصر من الامبراطورية التركية مع القضاء على حكم المماليك ، تلك المحاولات التى بدأت بانشاء جمهورية همام وقويت فى عهد على بك الكبير وبلغت قمتها فى عهد الحملة الفرنسية ثم فى عهد محمد على ، كانت تهيىء الجو السياسى الذى يتيح للطهطاوى أن يعبر عن هذه الدعـوة بمثـــل هـــذه الصراحة . ولكن دور الطهطاوى فى تحدى الايديولوجيـة القائمة على الجامعة العثمانية باسم الجامعة الاسلامية وفى توكيد الفوارق بين خصائص المصريين والعرب عامة أفرادا ومجتمعات وخصائص الترك ، أى باختصار : توكيـــد القومية المصرية والقومية العربية ، كان سلاحا قويا فى حرب العقائد شنها المفكرون المصريون والمفكرون العـرب عامة على فكرة الجامعة الاسلامية التى كان الاتراك يحكمون الشعوب العربية تحت لوائها

يقول الطهطاوى فى « مناهج الالباب » :

« فقد أجمع المؤرخون على أن مصر دون غيرها من الممالك عظم تمدنها وبلغ أهلها درجة عليا فى الفنون والمنافـــع العمومية فكيف لا وان آثار التمـــدن وأماراته وعـلاماته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مكثت بمصر نحو ثلاثة وأربعين قرنا يشـــاهدها الوارد والمتردد ويعجب من حسنها الوافد والمتفرج مع تنوعها كل التنوع ، فجميع المبانى التى تدل على عظم ملوكها وسلاطينها هى من أقوى دلائل العظمة الملوكية وبراهينها فانظر الى آثار منف وأبنيتها وعجائبها وأصنامها ودفائنها مما يحكيه المؤرخون عنها وأنها كانت ثلاثين ميلا بيوتا متصلة ومنها بيت فرعون وهو قطعة واحدة من الحجر وسقفه وفرشه وحيطانه من الحجر الاخضر وكان لها سـبعون بابا وهى مدينة المملكة المصرية وكانت منزل الملوك من القبط الاولى والعماليق ومسكن الفراعنة وما زال الملك بها الى أن ملك الروم اليونان ديار مصر فانتقل كرسى المملكة منها الى الاسكندرية ومع ذلك لم تزل عامرة الى أن جاء الاسلام ثم خربت وفيها كانت الانهار تجرى من تحت سرير الملك وكانت أربعة أنهار

« ويقال ان ملوك الدنيا لو اجتمعوا واتفقـــوا على أن يصنعوا مثلها لما أمكنهم ذلك » (مناهج الالباب ص ١٧٧)

هذه الوقفة الجميلة عند مجد مصر الغابر وحضارتها الاولى لها عشرات من نظـــائرها . ويلاحظ أن رفاعة الطهطاوى بسبب اختلاط مراجعه التاريخية بين عربيـة وأوروبية يتحدث عن « ملوك من القبط الاولى » كأنمـا الملوك القبط شىء والفراعنة شىء آخر ، وهما فى الواقع شىء واحد وهو الملوك المصريون أو ملوك Aegyptus وقد كانت العرب حتى ابن خلدون (نحو ١٤٠٠) تسمى المصريين جميعا القبط بغض النظر عن ديانتهم ، فلا شك أن اكثرية المصريين كانت قد اعتنقت الاسلام حين كتب ابن خلدون مقدمته التى يعرف فيها القبط بأنهم ســكان مصر . كذلك من الالفاظ التاريخية التى ظلت تستعمل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى عصر الجبرتى ثم الطهطاوى بغزارة كلمة « الروم » بمعنى « الترك » لا بمعنى « الجريج » كما تنصرف فى الاصطلاح المصرى العامى . والطهطاوى يميز اليونان بقوله « الروم اليونان » باعتبار أن هناك « الروم الترك » . و « الروم » حتى ابن زنبل الذى وصف فتح السلطان سليم لمصر تعنى بصورة محددة « الترك »

وفى ظنى أن « الروم » هى الصيغة العربية لكلمة « اليوم » Ilium وهى طروادة المشهورة ، حاضرة آسيا الصغرى فى العالم القديم ، وبذلك يكون « بحر الروم » أو ما نسميه اليوم « البحر الابيض المتوسط » هو بحر « اليوم » أو بحر طروادة

بل ان اسم « طروادة » Troy ومنها Trojan فيها كل عناصر كلمة « ترك » أو « تركيا » . وقد بدأ اختلاط معنى « الروم » بتأثير الاستعمال الشعبى فى الجبرتى الذى يستعملها آنا بمعنى « الترك » بصراحة ودون لبس وأحيانا بمعنى اليونان ، فهو يقول فى ١٧/٣ « حضر أغا رومى » وزار المشهد الحسينى فاعتقد الناس أنه رسول أوفده سلطان تركيا جاء يدعوهم للثورة على بونابرت . وهو فى ١٤٥/٣ يقول ان على باشا الطرابلسى عاد الى « الديار الرومية » وكان يراسل الثوار المصريين على جيش الاحتلال الفرنسى من خلال السيد أحمد المحروقى وهو يقول فى ١١٥/٣ أن كليبر سافر من القاهرة ، حين جاءت أنباء بوصول « مراكب وغلابين من ناحية الروم الى ثغر الاسكندرية » ، استعدادا لمواجهة الاسطول الفرنسى، ثم رجع حين تبين عدم صحة هذا النبأ

ولكن الجبرتى فى مواضع متعددة يحدثنا عن «النصارى الشوام والاروام » بوصفهم عناصر موالية للفرنسيين ، ولا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سيما نقولا الرومي وبرطلمان الرومي رئيس البوليس أو فرط الرمان كما كان المصريون يسمونه ، وهما من عتاة من سلطهم الفرنسيون على المصريين ، والجبرتي يقصد بكل هؤلاء « الاروام » أو « الجربج » بمعنى اليونانيين . كذلك من الكلمات الهامة التي يستعملها رفاعة الطهطاوي وتحتاج الى تفسير كلمة « العماليق » بوصفهم أسرة من أسر الملوك الذين حكموا منفيس بين ملوك القبط والفراعنة واسم العماليق يتردد كثيرا في تواريخ العرب التي تتناول تاريخ مصر القديمة ، دون أن يجد من المحققين من يتصدى لتفسيره . ولا يبعد أنه مرادف لملوك الهكسوس الذين حكموا من منفيس « ميت رهينة » فعلا قبل تأسيسهم عاصمتهم أواريس قرب بلبيس أو « هوارة » كما اشتبهت فيما سبق . فاذا صح ما ذهبت اليه من أن الغز أي المماليك قد يكونون فلولا من « خزو » ، أي الهكسوس بلغة مصر القديمة ، أو موجات متأخرة منهم ، فربما كان اسم « العماليق » هو الاساس الاشتقاقي الذي خرجت منه كلمة « المماليك »

وفي الديباجة التقليدية نجد أن رفاعة الطهطاوي يقول « أنه قد عاد لمصر عزها القديم وبهوها الفخيم ومجدها المؤثل وسعدها الاول » منذ عهد محمد علي وورثاته حتى اسماعيل . ويخيل الينا أن الطهطاوي المحرج في كتابة هذه الديباجة التقليدية ، غلف تهكمه الخفي بلباقة العبارة حين أردف « فكل منهم أبدى في مصر من المحسنات بقدر طاقته وجهده وعلى حسن نيته وخلوص قصده » (ص ٢) وليفهم القارىء ما يريد أن يفهم من هذا التحفظ في الكلام عن الطاقة والجهد وخلوص النية

وبعد أن يحدثنا الطهطاوي بأن مصر « أم الدنيا »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويفضلها على الشام والعراق يقول انها « روضة الدنيا »، « ولم يكن في الارض ملك أعظم من ملك مصر وكان جميع الارضين يحتاجون الى مصر .. وهذا عين التمدن اذ لا يكون ذلك الا بتقدم الصنائع والفنون ويؤيده بقايا الاثار المشاهدة التي لا كان مثلها في غير مصر ولا يكون مع ما انمحى منها بشهادة قوله تعالى (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) وقد قنع المأمون بهذه الاية حين استصغر مصر في عينه وذهل عن حقيقة الدراية والرواية فأدرك بها من الحكمة والغاية » (« مناهج » ١٨)

والطهطاوى لا يمل من تذكيرنا بهذه الامجاد الغابرة : « وقدماء المصريين من الازمان الحالية والقرون البالية يعانون الاعمال العجيبة ويجتهدون في انجاز الاشغال الغريبة كالاهرام والمسلات العظيمة والتصاوير والتماثيل العجيبة الجسيمة » («مناهج» ١٢٠) . وهو يرى أن مصر القديمة ما بلغت كل هذا المجد وهذه المدنية الا بواسطتين : « (احداهما) تهذيب الاخلاق بالاداب الدينية والفضائل الانسانية .. (والواسطة الثانية) هي المنافع العمومية التي تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم البال على عموم الجمعية (يقصد المجتمع) وتبعدها عن الحالة الاولية الطبيعية (يقصد البدائية وحياة الفطرة) » («مناهج» ٧ ـ ٨) . وهو يعلمنا أن الوطنية هي قمة الفضائل وأن حب الوطن ركن من أركان الدين ، وأن دليل الوطنية هو الرغبة في تمدين الوطن والعمل على تجديد شبابه بالعمران . والطهطاوى الذى يصف نفسه بأنه « عاشق لجمال العمران » يقول ان غايته وغاية كل وطني هو بعث مجد مصر القديم بالأخذ بأسباب الحضارة الحديثة ، وأن دوره كمفكر ودور كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المثقفين هو خدمة المجتمع بفكرهم وعلمهم

هذه هي اليقظة القومية المصرية والعربية التى بدأت احساساتها الغامضة المذوبة فى محيط الجامعة السديمية تتبلور منذ الحملة الفرنسية حتى غدت فى أدب رفاعة الطهطاوى وتلاميذه تيارا فكريا كبيرا ثم عميقا ثم عارما حتى اكتسح كل ما أمامه من ولاءات

أما موقف رفاعة الطهطاوى من المماليك فواضح وقاطع، وهو أنهم المسئولون عن خراب مصر

« وعند فتوح الاسلام سلك الخلفاء والسلاطين والولاة بقدر استطاعتهم فى هذا السلوك (يقصد دأب الفراعنة على المحافظة على مرافق البلاد) وانما لما صارت مملكة مصر فى قبضة الكوليمان وصار لهم عليها الرياسة واختلت أحوالهم وضعفت عندهم السياسة ولم يبق لهم من شهامة الحكام الا مجرد احسان ركوب الخيل والفروسية بدون فراسة أهملوا عمليات النيل فخسروا من نيل الثروة وكسب السعادة خسرانا مبينا وهجم عليهم الفرنساوية فلم يجدوا لهم من النظام المعنوى ولا الحسى منجدا ولا معينا فتبدد شملهم بالكلية وصارت مصر فى يد الفرنساوية تعد اقليما من أقاليم الجمهورية ولم تعد للدولة العلية الا بعد التى واللتيا فزحف عليها المماليك وبالهمة المحمدية العلية لم يلبثوا بها مليا ثم بتوطن هذا الامير وتوطيد هذا السرير أدرك أنه لم يستول من الاراضى الا على موات ولم يسترع الا احياء ضعفاء الهمة ،وهم فى الحقيقة لاختلال الهيئة الاجتماعية فى حيز الاموات »

« .... »

« فكان المماليك المستولون عليها لا ينظرون الى عمارتها وانما يأخذون ما بدا لهم وراج فى كل عام حتى صارت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبابا وازدادت خرابا فقد كان اهملها المماليك نحو خمسين سنة بدون عملية تيلية فكانت الاراضى تفسد فى كل عام فى كثير من الاقاليم حتى هجمت جيوش رمال البرارى على وادى النيل الصالح للزراعة فتكون من الرمال على شواطىء النيل تلال وأكوام ولو بقى حكم ابراهيم بك عشرين من الاعوام لفسدت جميع أراضى مصر الزراعية

« قال نابليون حين تأمله فى أراضى مصر لو حكمت هذه الديار بحكومة منتظمة مضاهية لحكومة فرنسا وايطاليا وانكلترا والنمسا لزادت مزارعها وأهاليها ثلاث أضعاف ما كانت عليه فى أيام المماليك » (« مناهج الالباب » ص ٢٢٤ — ٢٢٥)

وفى موضع آخر يشرح رفاعة الطهطاوى سبب فساد الادارة المملوكية فيقول :

« فقد كانت حكومة المماليك مؤلفة من عدة سناجق تتوزع بينهم أقاليم مصر وكل سنجق يقطع لكشافة القرى والنواحى وكان كل سنجق منفصلا عن غيره بادارته وسياسته لا يتبع الا هوى نفسه ولا يطيع الا ما يسوله له عقله من وسائل التخريب وان كان مستقيما للصدفة والاتفاق فالغالب عليه التكاسل وعدم النشاط فكان فى ايامهم لكل قسم وكل قرية ترع وجسور خصوصية لا ينتفع من السقى منها الا اهاليها ولم يكن بينهم روابط عمومية فكان اصحاب الاراضى والمزارعون لها المجاورون شطوط الماء يحتكرون الرى والسقى ويختلسون من المياه ما هو قريب منهم ويمنعون الاراضى البعيدة من ذلك مع كونها لها حق فى مشاركتهم فى المياه عند الفيضان فكان ينشأ من هذا مالا مزيد عليه من عداوة قرية لاخرى وربما ترتب على ذلك القتال وسفك الدماء فلهذه الحوادث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجارية فى أيام حكمهم تقهقرت العمليـــــات الهندسية الموروثة عن الفراعنة والرومانيين ومن بعدهم من الخلفاء والسلاطين (« مناهج الالباب » ٢٣٥ ـ ٢٣٦)

وفى « مناهج الالباب » فصول عديدة كاملة تتناول ما أجراه محمد على من اصلاحات بعد تطهير البلاد من المماليك وأكثرها مخصص لما أجراه من اصلاحات زراعيـــة كشـق الترع وانشاء القناطر وتنظيم الرى واستحداث المحاصيل ثم ما انشأه من مصانع وترسانات ومدارس تكنولوجيـة وطبية وعسكرية وما بناه من سفن وما حسن من وسائل النقل وما جيش من جيوش وما فتح من فتوح وما أوفد من بعثات علمية وبعثات استكشافية وما أنعش من اقتصاد فى كل قطاع من القطاعات الخ

كتب الطهطاوى « مناهج الالباب » بعد ربع قرن من الظلام التام الذى ساد مصر فى عهد عباس الاول ، ومن الظلام النسبى الذى ساد مصر فى عهد سعيد باشا. وكانت اظهر مظاهر هذا الظلام اغلاق كافة المدارس التى انشاها محمد على وعزل رفاعة الطهطاوى من رياسة تحـــرير « الوقائع المصرية » ونفيه الى السودان وتشتيت القيادات الفكرية التى تخرجت فى مدرسة الالسن أيام محمد على وابراهيم . وقد كان محمد على شديد الحرص على أن تصل « الوقائع المصرية » الى ايدى اكبر عدد من المثقفين والموظفين والطلاب . فكانت الجريدة الرسمية توزع بصفة هدايا على كبار رجال الدولة والعلماء كما كانت توزع بالمجان على الطلاب ، الا القادرين منهم على شرائها . وكذلك اكره محمد على سائر الموظفين لتحصيل الاشتراكات من أعيـان البلاد، وبذلك اصبحت « الوقائع المصرية » فى عهده جريدة يقرؤها كافة المتعلمين فى مصر . وكانت جهود محمد على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لنشر « الوقائع المصرية » على أوسع نطاق ممكن « جريا على أصول اوروبا » . وكذلك كان الامر بتجديد « الوقائع المصرية » طبقا لخطة مدروسة تستهدف الرقي بالصحافة الاوروبية : « فالجناب العالى ظل شديد الرغبة في وضع خطة سديدة تضمن صدور الوقائع على الوجه الاكمل كما هو الحال في صحافة الممالك الاخرى» . وقد كان أهم مافي التجديد الذى استحدثه الطهطاوى هو الافتتاحية السياسية التى ادخلها على مواد الجريدة وكان من خلالها يعلم قراءه النظم السياسية واصول الحكم وينـاقش من خلالها السياسة الداخلية والسياسة الخارجية . فهو آنا يقول لقرائه ان نظم الحكم « منقسمة الى اربعة اقسام : ديمقراطية وارستقراطية ومونرخية (يقصد ملكية) ومختلطة او مركبة » . وهو آنا يرد على منتسكيو القائل باستبداد ملوك الشرق وامرائه وحكامه

فلما انتكست البلاد فى عهد عباس الاول أمر هذا الوالى الرجعى بالا ينشر فى « الوقائع المصرية » شيء يختص بالسياسة « بل يجب انحصارها فى اخبار مايحفر من الترع وما ينشأ من الجسور والقناطر وفى أنباء العزل والنصب وكذلك انباء السفن التى من الخارج » . ولم يكتف عباس الاول بمنع « الوقائع المصرية » من التعرض للسياسة وللفكر السياسى ، بل حدد تداولها فى « الحائزين على رتبة فريق ورتبة ميرميران ورتبة ميرلوا ورتبة ميرالاى فقط » بعد أن تبين له ان الجريدة ترسل « لجماعة أمية وسفله ، مثل حسن اغا وكيل الخراج وفيض الله اغا الطاهى وموسى اليهودى الالاتى »

لقد أحس عباس الاول بدور الصحافة فى تكوين الراى العام فحال دون وصول « الوقائع المصرية » الى صفار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموظفين وغيرهم من أبناء الطبقات الشعبية كما أمر بعدم تدخلها فى السياسة . وتمت محنة « الوقائع المصرية » فاحتجبت تماما فى أواخر عهد سعيد باشا وأهدى سعيد باشا مطبعة بولاق الى أحد موظفيه وهو عبد الرحمن بك رشدى مدير الوابورات الميرية فى البحر الاحمر « ليكون ذلك سببا لاتساع معاشه كما اقتضت ارادتنا » . وحين تولى الخديو اسماعيل الحكم أصدر عبد الرحمن رشدى « الوقائع المصرية » لحسابه باذن من الخديو من فبراير ١٨٦٣ الى ٢٢ نوفمبر ١٨٦٥ ، ولكن الخديو اسماعيل لم يلبث أن تبنى « الوقائع المصرية » من جديد وأعاد تنظيمها بقرار ٢٢ نوفمبر ١٩٦٥ ، وتوسع فى الانفاق عليها لتعود الى مجدها الاول ايام محمد على . وقد كان الخديو اسماعيل عاهلا مستنيرا يؤمن برسالة الصحافة فى تنوير الرأى العام فتعددت الصحف المصرية الصادرة فى عهده بتشجيع منه حتى بلغت أربعين صحيفة تصدر بلغات متعددة . وفى هذا الجو المستنير وفى هذا التفتح الجديد أمكن لرفاعه الطهطاوى أن يصدر « مناهج الالباب » فيجدد به ما سبق أن بدأه من كفاح فى قيادة المثقفين المصريين فى سبيل النضج السياسى

كان أوضح معالم عصر عباس الاول وسعيد عزل الشعب المصرى عن السياسة ، ونظر الحاكم الى السياسة على أنها مهنة خاصة بطبقة خاصة هى الطبقة الحاكمة . ولذا فقد كان من أهم ما طالب به الطهطاوى فى « مناهج الالباب » هو نشر الثقافة السياسية على أوسع نطاق ممكن بين المواطنين . قال الطهطاوى :

« ثم ان الاصول والاحكام التى بها ادارة المملكة تسمى فن السيادة الملكية (يقصد المدنية) وتسمى فن الادارة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتسمى ايضا علم تدبير المملكة ونحو ذلك والبحث فى هذا العلم ودوران الالسن فيه والتحدث به والمنادمة عليه فى المجالس والمحافل والخوض فيه فى الغازيتات ، وكل ذلك يسمى بوليتيقة أى سياسة ، وينسب اليه فيقال بوليتيقى أو سياسى . فالبوليتيقة هى كل ما يتعلق بالدولة وأحكامها وعلائقها وروابطها

« فقد جرت العادة فى البلاد المتمدنة بتعليم الصبيان القرآن الشريف فى البلاد الاسلامية وكتب الاديان فى غيرها قبل تعليم الصنائع ، وهذا لا بأس به فى حد ذاته ، ومع ذلك فمبادىء العلوم الملكية (يقصد المدنية) السياسية هى قوة حاكمة عمومية وفروعها فى الممالك والقرى بالنسبة لابناء الاهالى ، مع ان تعليمها أيضا لهم مما يناسب المصلحة العمومية . فما المانع من أن يكون فى كل دائرة بلدية معلم يقرأ للصبيان بعد تمام تعليم القرآن الشريف والعقائد ومبادىء العربية مبادىء الامور السياسية والادارية ويوقفهم على نتائجها ، وهو فهم أسرار المنافع العمومية التى تعود على الجمعية (يقصد المجتمع) وعلى سائر الرعية من حسن الادارة والسياسة والرعاية فى مقابلة ما تعطيه الرعية من الاموال والرجال للحكومة ، ويفيدهم اسباب ايجاب الحكومة على الاهالى (يقصد الزام الحكومة للاهالى) ان تخدم وطنها بنفسها خدمة شخصية فى العسكرية واسباب الزام الاهالى بدفع حصة مخصصة من اموالهم بوصف خراج أو ويركو أو عوائد أو نحو ذلك من جبايات الحكومة القائمة فى الدول الاسلامية مكان الزكاة المعطلة . وكذلك ليعرف الاهالى اسباب ايجاب الحكومة عليهم ان يتنازلوا عن شىء من أملاكهم وعقاراتهم عند الاقتضاء واحتياج الحكومة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لذلك للمصلحة العمومية كتوسيع الطرق وما أشبه ذلك من العمليات التنظيمية

« فاذا ارتكز فى أذهان الصبيان فى زمن شبوبيتهم أصول هذه السياسات الشرعية وفروعها وفهموا الاسباب والمسببات سهل عليهم عند بلوغ الرشد والوصول الى كمال الرجولية اجراء مفعولها . وهل هذا التعليم الا وقف أهل الوطن على معرفة حقوقهم وواجباتهم بالنسبة لاملاكهم وأموالهم ومنافعهم ومالهم وما عليهم ، محافظة على حقوقهم ودفعا للتعدى عليها . فاللائق أن يكون بكل ناحية معلم لمبادىء الادارة (يقصد أصول الحكم) ومنافع الجمعية العمومية (يقصد المجتمع) فى مقابلة ماتدفعه الجمعية للحكومة . فان هذا التعليم مع تقديمه الشخص المتعلم له تأثير معنوى فى تهذيب الأخلاق ، ومنه تفهم الاهالى ان مصالحهم الخصوصية الشخصية لا تتم ولا تتنجز الا بتحقيق المصلحة العمومية التى هى مصلحة الحكومة وهى مصلحة الوطن ، فتنذعن نفوسهم بأن القواعد الخصوصية (يقصد المنفعة الخاصة) ليست فى حد ذاتها مضمونة الحصول الا فى ضمن الفوائد العمومية المذكورة (يقصد المنفعة العامة) . وأيضا مما يقتضى لياقة تعليم مبادىء الادارة بالنواحى (يقصد تعليم مبادىء السياسة فى القرى واحياء المدن) كون قانون الحكومة لا يمنع من جواز استخدام أحد من الاهالى ، فاستخدامه فى الملكية (يقصد فى خدمة الحكومة المدنية) لا سيما منصب المشيخة البلدية كما سيأتى ذكره ، يستدعى سبق معرفة بأصولها ، والا ترتب على استخدام الجاهل لها من السقامة بالحكم (؟) ، لا سيما أيضا مع تجديد الجمعيات المنتخبة (؟) ، وانما العلم بالانتخاب ومجالس النواب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« وكان المانع لتعلم البوليتيقة والسياسة فى الازمان السابقة ما تشتد به رؤساء الحكومات من قولهم أن السياسة من أسرار الحكومة الملكية (يقصد المدنية) ، لا ينبغى علمها الا لرؤساء الدولة ونظار الدواوين مع كون لفظ البوليتيقة كان معروفا أيضا بمعنى آخر وهو الحيلة والخداع والتدبير مما لايليق الابالمملكة الجائرة ٠وفى هذه الايام جميع الاحكام الملكية (يقصد المدنية) مؤسسة على العدل والامانة وخلوص النية المتقوم منهما الحق وهو أبيض أبلج لا ينبنى الا على الاخلاص فى القول والعمل وحسن العلاقات بين الراعى والرعية ، مما يغرس المحبة والمودة فى قلب الملك ورعاياه بسبب اتباعه الاصول المربوطة وسيره على السنن القويم حسب أحكام المملكة المشروطة وهى غير مكتومة » (« مناهج الالباب » ص ٣٥٠ ـ ٣٥٢)

فالذى يطالب رفاعة الطهطاوى له باختصار ، هو رفع الحجاب السياسى عن الشعب المصرى ، بعد أن دام هذا الحجاب طوال عهد عباس الاول وسعيد . هو يطالب بتعميم تدريس مبادىء السياسة فى المدارس المصرية ليعرف المصريون حقوقهم وواجباتهم السياسية والمدنية ، بعد أن ظلت « البولتيقا » حكرا على دائرة مغلقة من الحكام . وواضح أن العرف المتبع يومئذ كان : التربية الدينية لابناء العامة والتربية السياسية لابناء الخاصة . وقد كان هذا هو الوضع السائد فى أوروبا نفسها حتى الثورة الفرنسية التى حطمت ، فيما حطمت ، احتكار الارستقراطية للتربية السياسية وعممت التربيةالسياسية على أبناء الشعب كجزء لا يتجزأ من عملية نقل السلطة الى الارادة الشعبية فى كل نظام ديمقراطى . والطهطاوى يعلن ان الاكتفاء بالتربية الدينية لا يؤدى الى مشاركة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشعب فى حكم بلاده لسبب خطير ، وهو أن قوانين الدولة الحديثة غير نابعة من الشرائع السماوية، فالضرائب العامة قد حلت محل الزكاة المعطلة والخدمة العسكرية الاجبارية وحروب الدولة الحديثة قد تجاوزا أغراض الجهاد الدينى بالمعنى المحدد . وبالتالى فان من حق كل مواطن ومن واجبه أن يعرف فى أى وجه تتصرف الدولة فى ماله وفى شخصه سواء بالزامه بالمشاركة فى الضرائب العامة أو بالمشاركة فى الخدمة العسكرية ، واخفاء هذه الحقوق والواجبات من المواطنين يتضمن قيام حالة من الاغتصاب تمارسها السلطة مع الشعب وتتنافى مع فكرة قيام المجتمع المدنى ، وبالتالى فهو يفض من شرعية السلطة

الحق أن « مناهج الالباب » كتاب محير الى درجة مقلقة لكل من درس أفكار الطهطاوى الاساسية فى « تخليص الابريز » ، وهو كتاب محير لانه يتضمن نطورا لاراء الطهطاوى فى اتجاهين متضادين : أحدهما النكوص من الليبرالية المطلقة التى تميزت بها ثورة ثوار فرنسا واوروبا عامة نحو ١٨٣٠ ، ومن الايمان العميق بالاشكال الديمقراطية الكلاسيكية ومن تقديس الشعب والارادة الشعبية ، الى لون من الاعتدال السياسى يكتفى بنظام الملكية المقيدة شكلا للحكم ولا يرى ان الجمهورية كنظام سياسى تتضمن بالضرورة أية ضمانات للحرية . أى النكوص من جمهورية جان جاك روسو الديمقراطية الثورية الى الملكية المقيدة عند مونتسكيو صاحب « روح القوانين » وعند فلاسفة عصر التنوير فى القرن الثامن عشر . أما الاتجاه الثانى فى « مناهج الالباب » ، فهو نحو عدم الاكتفاء بأشكال الديمقراطية السياسية كما تتجلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى النظام النيـــابى والاصرار على أهمية الديمقـراطية الاقتصادية . وقد حاول رفاعة الطهطاوى الخروج من هذا المأزق الحرج ، وهو الحلم بالملكية المفيدة التى تعفى البلاد من أوتوقراطية الولاة الرجعيين من أمثال عبـاس الاول ، والحلم فى الوقت نفسه باصلاح راديكالى يجدد الثورة الاقتصادية فى البلاد ، بالاستسلام لحلم كبير يجب الحلمين معا ويقوم على تأليه الدولة مجسدة فى صورة مصلح عظيم من طراز محمد على

يقول رفاعة الطهطاوى فى «مناهج الالباب» (ص٣٤٩) :

« فقد استبان من هذا احتياج الانتظام العمرانى الى قوتين عظيمتين ، احداهما القوة الحاكمة الجالبة للمصالح الدارئة للمفاسد ، وثانيهمـا القوة المحكومة وهى القوة الاهلية المحرزة لكمال الحرية المنتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج اليه الانسان فى معاشه ووجوه كسبه وتحصيل سعادته دنيا وأخرى . فالقوة الحاكمة العمومية ، وما يتفرع عليها ، تسمى ايضا بالحكومة وبالملكية ، هى أمر مركزى تنبعث منه ثلاثة أشعة قوية تسمى أركان الحكومة وقواها . (يقصد سلطاتها) ، فالقوة الاولى (يقصـد السلطة الاولى) ، قوة تقنين القوانين وتنظيمهـا وترجيح ما يجرى عليه العمل من أحكام الشريعة أو السـياسه الشرعيـة (يقصـد السـلطة الشريعيـة) . النـــانية قوة القضاء (يقصد السلطة القضائية) ، وفصـــل الحكم . الثالثة قوة التنفيذ للاحكام ، بعـــد حـــكم القضاة بها (يقصد السلطة التنفيذية) . فهذه القوى الثلاث ترجع الى قوة واحدة ، وهى القوة الملوكية المشروطة بالقوانين »

هذه القوة الملوكية التى يحدثنا عنها رفاعة الطهطاوى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول أنها منبع السلطات الثلاث : السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية ، ليست الا سيادة « الدولة » أو ما يسمى فى الفقه الدستورى Sovereignty of the State ، وهى ليست بالضرورة ملكية ، فقد تكون جمهورية أو ارستقراطية . والسلطات الثلاث السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية تنبثق من شخصية الدولة وهذه الشخصية المعنوية عند الطهطاوى كما هى عند مونتسكيو أكبر من مجموع أجزائها ، وهى مجسدة فى « الملك » أو « الامير » أو صاحب السيادة فى المجتمع . أما ما يسميه الطهطاوى القوة الملوكية » بمعنى Souveraineté وليس بمعنى المونارخية Monarchie هذه القوة الملكية هى عند الطهطاوى « واحدة » وهى فى الوقت نفسه « مشروطة بالقوانين » ، وهذا بالضبط موقف مونتسكيو . سلطة الدولة ، أو « القوة الملوكية » اذن لها مقياسان لشرعيتها : انها واحدة ، أى مجسدة لارادة واحدة ، فهى غير قابلة للتجزئة ولا للتعدد ، كالتعدد النابع من تعدد الارادات كما فى دول المماليك أو أمراء الاقطاع ، وانها خاضعة لسيادة القانون ، والا كانت هذه الارادة الواحدة خاضعة لنزوات الحاكم المستبد . وانبثاق السلطات الثلاث : التشريعية والقضائية والتنفيذية من هذا الكيان الواحد ليس معناه تجزئة هذا الكيان الى ثلاثة كيانات مستقلة معبرة عن ثلاث ارادات مستقلة ، فالسلطات الثلاث أشبه شىء بثلاثة أشعة منبعثة من مركز واحد . ومن هنا كان فى نظرية الطهطاوى السياسية كما بسطها فى « مناهج الالباب » درجة من درجات « تأليه » الدولة ، على الطريقة الهيجيلية التى تجعل « الدولة » تجسيدا للروح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المطلق . وقد دعاه تأليه الدولة الى اتخاذ موقف شبيه بموقف فلاسفة الرجعية من نظرية حق الملوك الالهى ، فعاد بالفكر السياسى الى ما قبل مونتسكيو : كتب الطهطاوى فى « مناهج الالباب » (ص ٣٥٤) يقول :

« ثم ان للملوك فى ممالكهم حقوقا تسمى بالمزايا وعليهم واجبات فى حق الرعايا . فمن مزايا الملك أنه خليفة الله فى أرضه وان حسابه على ربه ، فليس عليه فى فعله مسئولية لاحد من رعاياه ، وانما يذكر للحكم والحكمة من طرف أرباب الشرعيات أو السياسات برفق ولين لاخطاره بما عسى أن يكون قد غفل عنه مع حسن الظن به لقوله صلى الله عليه وسلم : الدين النصيحة . فقلنا : لمن يا رسول الله قال : لله ولكتابه ولرسله ولأئمة المسلمين وعامتهم . وايضا للانسان فى نفسه محكمة تجرى الاحكام على صاحبها ، وهى الذمة التى هى النفس اللوامة أو المطمئنة ، فهى قاض لا يقبل الرشوة . فاذا فعل الملك كفير ما لا يوافق لامته عاقبته نفسه لان نور الحق يسطع فى القلب . واذا فعل الملك ما لا ينبغى فعله لا تطمئن نفسه الى ذلك ولا يسكن قلبه اليه ولا يفرح به . وأما فعل الخير فتطمئن اليه النفس ويركن اليه القلب وينشرح له الصدر »

رفاعة الطهطاوى اذن فى « مناهج الالباب » يسقط المسئولية عن رئيس الدولة ويجعل محكمته فى ضميره وأمام ربه وأمام الرأى العام وأمام التاريخ ويجعل مدى تقييد ارادته مقصورا على اسداء النصح له بالحسنى .

فلننظر الان أن كان رفاعة الطهطاوى قد انتقل بفكره السياسى فى أواخر أيامه الى معسكر الرجعية وتبرير الملكيات المطلقة ، بل والى احياء نظرية حق الملوك الالهى ، أم أنه ظل يتحرك داخل الاطار الديمقراطى الذى اختاره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لنفسه فى صدر حياته مع بعض الميل الى المحافظة والاعتدال المتمثلين فى نظرية الملكية المقيدة بدلا من الدعوة الجمهورية الواضحة التى لازمت تفكيره الاول . يقول الطهطاوى فى « مناهج الالباب » (ص ٣٥٥) :

« فذمة (يقصد ضمير) الملوك كذمة غيرهم تتأثر بالانبساط من الخير والانقباض من الشر ، فالذمة حكم عدل تنفر غالبا من الظلم والجور ، فهى عنوان الخوف من الله تعالى فى كونها تحمل الملوك على العدل . ومما يحملهم على العدل أيضا ويحاسبهم محاسبة معنوية الرأى العمومى ، أى رأى عموم أهل ممالكهم أو ممالك غيرهم ممن جاورهم من الممالك . فان الملوك يستحون من اللوم العمومى ، فالرأى العمومى سلطان قاهر على قلوب الملوك والاكابر ، لا يتساهل فى حكمه ولا يهزل فى قضائه . فويل لمن نفرت منه القلوب واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب »

ان هذا الكلام يتمم سابقه وجوهره كلمتان : مسئولية الملوك معنوية لا قانونية . الملوك لا يحاكمون ولكن يثار عليهم ويخلعون . ان محكمة الملوك الكبرى هى الرأى العام ، والرأى العام سلطان قاهر لا يتساهل فى حكمه ولا يهزل فى قضائه . فويل لمن نفرت منه القلوب واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب . الرأى العام هو الذى يقلب العروش وبغير نظم الحكم . هذا المنطق هو نفس المنطق الذى استخدمه الثائر سان جوست أيام الثورة الفرنسية حين كثر الحديث عن محاكمة الملك لويس السادس عشر ، ولكن سان جوست عبر عنه بعبارات دموية حين قال : الملوك لا يحاكمون ، وهذا الرجل اما أن يحكم واما أن يموت . ومن يتأمل موقف الطهطاوى يجد أنه شديد الشبه بالفقه الثورى الذى أشار به سان جوست : حيث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ترتفع المسئولية القانونية تحل محلها المسئولية الشاملة التى لا تجدى معها جزئيات القانون . وهذا منطق الثورات

وقد واجه مونتسكيو هذه المشكلة فى كتابه « روح القوانين » ، فأفتى بعدم مسئولية الملك رغم انه على رأس السلطة التنفيذية ولكنه أفنى بمسئولية ناصحيه ووزرائه قال مونتسكيو :

« ولكن رغم ان السلطة التشريعية فى دولة حرة لا حق لها فى ابطال أعمال السلطة التنفيذية ، فان من حقها ، بل ويجب أن تملك وسائل بحث الطريقة التى يطبق بها ما تصدره من قوانين ، وهى مزية تتفوق بها هذه الحكومة على حكومة كريت واسبرطه ، حيث الحكام لا يقدمون حسابا عن أعمالهم فى ادارة الدولة

« ولكن أيا كانت نتيجة هذا البحث ، فلا يجوز للسلطة التشريعية أن تمثل سلطة محاكمة من أودعت فيه السلطة التنفيذية سواء شخصه أو أعماله بطبيعة الحال ، اذ يجب أن يكون شخصا مقدسا ، لان من الضرورى لخير الدولة أن تمنع السلطة التشريعية من التحول الى قوة تحكمية ، فان اتهام رئيس الدولة أو محاكمته معناه انتهاء الحرية على الفور

« ففى هذه الحالة ، لا تصبح الدولة ملكية بل تصبح نوعا من الجمهورية ، وتكون مع ذلك خالية من الحرية ولكن بما أن الشخص الذى أودعت فيه السلطة التنفيذية لا يمكنه أن يسىء استعمالها بغير ناصحين فاسدين ومن بيدهم القانون كالوزراء مثلا ، فان هؤلاء الناس تمكن محاكمتهم ومعاقبتهم برغم حماية القوانين لهم بوصفهم مواطنين .. الخ »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذه الفتوى ترفع المسئولية عن الملك أو رئيس الدولة مع جواز محاسبة وزرائه ومشـــيريه وهى متمشية مع نظرية مونتسكيو العامة فى الملكية المقيدة بالقوانين التى بموجبها يصبح الملك أو رئيس الدولة فوق القـــانون ؛ وبالتالى فهو يملك ولا يحكم . أما نظرية الطهطاوى التي جمع فيها النقيضين : رفع المسئولية القانونية تماما عن كاهل ولى الامر وصاحب السيادة مع تحميله المسئولية الشـــاملة أمام الرأى العام واجازة خلعه بقـــوة الثورة فهى بمثابة قوله أن « القوة الملوكية » ليست مســـئولة قانونا ولكنها مسئولة سياسيا . وهى وجهة نظر فى نظم الحكم ، ولكنها بغير جدال لا تنبع من المقومات التى قدمها مونتسكيو وقبلهـــا رفاعة الطهطاوى أساسا لفكرته عن الملكية المقيدة كنظام أمثل للحكم . يقول الطهطـــاوى فى « مناهج الالباب » (٣٥٣ ـ ٣٥٤) :

« ثم ان الحكومة التى عبرنا عنها فيما ســـبق بالقوة الحاكمة ، هى من مقولة النسب والاضافات ، تقتضى حاكما ومحكوما ، يعنى ملكا ورعية ، فلا يفهم الملك الا بالرعية ولا تفهم الرعية الا بالملك كالابوة والبنوة . فلهذا وجب أن نتبين كلا منهما مع ما يتعلق به ، ونبتدىء بولاة الامور فنقول :

« ولى الامر هو رئيس أمته ، وصاحب النفوذ الاول فى دولته ، وحاكم متصرف بالاصول المرعية فى مملكته ، ولا توجد رعية فى مملكة منتظمة بدون راع ، والا ضعفت واختلت وشقى أهلهـــا لعدم من يسعى فى اســـعادهم بتحسين شئونهم

« وقد تأسست الممالك لحفظ حقوق الرعايا بالتسوية فى الاحكام والحرية وصيانة النفس والمـــال والعرض على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موجب أحكام شرعية وأصول مضبوطة مرعية ، فالملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين .

« ولما كانت السياسة جسيمة لا يقوم بها واحد ، اختص الملك بمعالى الاحكام وكلياتها وخلع نفوذه فى جزئيات الاحكام على المحاكم والمجالس وجعل لهم لوائح وقوانين خصوصية ترشد أفعالهم ولا يتعدونها قال بعضهم : ليست فى الدنيا جمعية منتظمة (يقصد مجتمع منظم) ولا مملكة معتدلة الاحكام الا وتكون القوة فيها بالاصول العدلية . فالاصول العادلة تصون ناموس الدولة عن الملامة . ولهذا كان جميع ما أمضاه الملك السالف من الاحكام وأجرى مقتضاه بالفعل والتنجيز ، ولا يسوغ لمن جاء بعده أن يخدشه ويبطل أحكامه التى جرى مقتضاها . وهذه القاعدة جارية فى سائر الممالك . فحرمة الاصول الملكية بصونها عن نقض ما جريانها راجعة فى الحقيقة لحفظ حرمة الملك فان بت (يقصد اصدار) الحكم فى عهد الملك أثر نتائج أفكاره أو ثمرة أوامره ونواهيه وتصديقه عليه ، فهو منسوب الى المنصب الملوكى فلا يسوغ نقضه . وقد كان المنصب الملوكى فى أول الامر فى أكثر الممالك انتخابيا بالسواد الاعظم واجماع الامة . ولكن لما ترتب على أصل الانتخابات ما لا يحصى من المفاسد والفتن والحروب والاختلافات ، اقتضت قاعدة كون درء المفاسد مقدما على جلب المصالح اختيار النوارث فى الابناء وولاية العهد على حسب أصول كل مملكة بما تقرر عندها ، فكان العمل بهذه الرسوم الملوكية ضامنا لحسن انتظام الممالك »

فرفاعة الطهطاوى هنا يبلور فى احكام نظرية الملكية المقيدة كما أخذها عن مونتسكيو وأضاف اليها . أول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شرط من شروط قيام الدولة عنده وجود قوة حاكمة تهيمن على الرعية كما يهيمن الاب على بنيه . وأول شرط من شروط شرعية السلطة صاحبة السيادة فى الدولة هى أن « الملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين » . وهذا ما جرى العرف على تسميته بالملك الدستورى . ومعنى هذا أن السلطة صاحبة السيادة فى الدولة لو تحللت من حكم القانون أهدرت شرعيتها .

وقد كان رفاعة الطهطاوى الشاب صاحب « تخليص الابريز » يرى أن الشعب هو صاحب السيادة ومصدر السلطات ، متأثرا فى ذلك بالفقه الثورى الذى تركه جان جاك روسو ويعاقبة الثورة الفرنسية فى الفكر الفرنسى خاصة وفى الفكر الاوروبى بوجه عام . ولكنه فى « مناهج الالباب » أصبح يرى أن رئيس الدولة هو صاحب السيادة ومصدر السلطات . وجوهر السيادة فيه غير قابل للتجزئة ولكنه قابل للتفويض . ومن هنا فرئيس الدولة يختص « بمعالى الاحكام وكلياتها » أى باصدار القوانين الاساسية ، وفى مقدمتها الدستور أبو القوانين . ثم يفوض سلطاته الى المجالس التشريعية والمحاكم للنظر فى الجزئيات ولتطبيق القوانين . فرئيس الدولة اذن عند الطهطاوى هو مصدر القوانين بالاصالة واذا كانت شرعيته ترتكز على خضوعه لحكم القانون ، فمعنى هذا أن رئيس الدولة مفلول اليد بما يسنه هو من قوانين أى بالقوانين المتوارثة ، أو ما يسميه الطهطاوى « الاصول المرعية فى مملكته » ويدخل فيها التقاليد التى تجرى مجرى « الاصول » ، فان ابطال قوانين السلف يغض من « القوة الملوكية » أو من مبدأ سيادة الدولة . والاصل فى رئيس الدولة أنه منتخب ولكن المجتمعات البشرية لجأت الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملكية الوراثية لا لقيمتها الذاتية أو لقدرتها على تحقيق الخير العام ولكن اتقاء لشرور التنازع على السلطة فى الملكيات أو الرياسات المنتخبة

ومعنى كل هذا أن رفاعه الطهطاوى تراجع من ديمقراطية روسو واليعاقبة الى قانونية مونتسكيو . بل لقد نقل سلطة السيادة من الشعب ومن رئيس الدولة الى طرف ثالث معنوى هو « القانون » : وجعل من القانون سيدا على الشعب والملك جميعا . وهذا هو الموقف الارسطاطاليسى الذى لا يفهم للديمقراطية معنى الا فى ظل سيادة القانون ويعتبر كل ارادة عامة لا يعبر عنها بالقانون نوعا من البليبوقراطية أو حكم الرعاع لا نوعا من الديمقراطية أو حكم الشعب . ولكن من المهم أن نذكر أن رفاعة الطهطاوى ، رغم اتجاهه الى الديمقراطية المعتدلة الممثلة فى زمانه فى مبدأ الملكية المقيدة ، لا يفرغ الوجود الاجتماعى من مضمونه الديمقراطى الثورى ، فهو يعلن الغاية من كل وجود اجتماعى وسياسى فى قوله : « وقد تأسست الممالك لحفظ حقوق الرعايا بالتسوية فى الاحكام والحرية وصيانة النفس والمال والعرض على موجب أحكام شرعية وأصول مضبوطة مرعية » . ان الغاية الاولى من تأسيس المجتمع المدنى عند رفاعة الطهطاوى هى حماية حقوق الانسان وفى مقدمتها الحقوق المدنية ، وهى الحرية والمساواة ، وكفالة الحقوق الشخصية . فرفاعه الطهطاوى لم يبعد كثيرا فى فهمه لمضمون الوجود الاجتماعى والسياسى عن موقفه الثورى الاول الذى أخذه شابا عن الفكر الثورى الاوروبى والحرية والمساواة لاتزالان فى وجدانه أولى غايات الوجود الاجتماعى . فهو اذن بهذا المعنى غدا معتدلا فى الشكل ولكنه حافظ على ثورية المضمون